رواية
NOVEL

Emily Porter

أمل بورتر

نـوار

فضاءات
للنشر والتوزيع

الطبعةالأولى -2009

رأ:2009/1/244

المؤلف:أمل بورتر

ISBN 978-9957-30-062-3

دار فضاءات للنشر والتوزيع

عمان= شارع الملك حسين-مقابل سينما زهران

تلفاكس:4650885 (6-00962)هاتف جوال: 0777911431

ص ب 925846.عمان111190الأردن

Dar-fadaat@yahoo.com

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من الناشر.

تصميم الغلاف: نضال جمهور

الصف الضوئي والإخراج الداخلي:فضاءات للنشر والتوزيع

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي دار فضاءات للنشر والتوزيع

أمل بورتر

نـوار

رواية

يقول بيكاسو الفن كذبة تتحدث عن حقيقة.

لو تطابقت الأسماء مع شخصيات حقيقية

فهذا محض صدفة!

ولدت أمل بورتر عام 1939 ببغداد . درست الفنون الجميلة بمعهد الفنون الجميلة ببغداد 1960، وبموسكو 1963 وتاريخ الفن في انكلترا 1993، فنانة ومؤرخة فنون ، نشرت عشرات الدراسات حول الفنون وبشكل خاص عن الفن في العراق القديم.

نـوار

نوار ماتت بالسكتة القلبية ... عم صمت ثقيل وتوقف الهواء، أصبح الجو جامداً، اختفت الأصوات وتحجرت الحركة، نوار ماتت السنة الماضية، تحول كل شي إلى فراغ هائل، كشحت الألوان واختفت تماما، تسطحت الأشكال وفقدت أبعادها، نوار ماتت ربما بمرض القلب أو بسبب آخر، لم يعد في المكان عبق أو رائحة، حاولت أن ألمس الكرسي القريب مني، لم أشعر به، نظرت حيث يدي، ميزت عيناي الكرسي الذي فقد لونه وشكله المعروف، حاولت أن أتحسس الكرسي بأصابعي لم أشعر بشي كأنني ألمس الهواء والفراغ، قالت صبرية بكل لا مبالاة نعم ماتت نوار رغم شبابها بالسكتة القلبية أو ربما بسبب آخر، أعتقد أنك أكثر من يعرف بمشاكلها.

لم أر نوار منذ سنوات بعد أن غادرت بغداد إلى إنجلترا، انقطعت أخبارها عني تماما، طوال سنين الانقطاع بقيت منهمكة بزياراتي الشهرية إلى سجن أبو غريب طيلة أعوام مدة محكومية زوجي، وبعد تجربة السجن لم يعد هناك ما يثير الفرح أو ما يحفز للحياة أو للمشاركة.

اتصلي بأمها ستحدثك عن نوار وموتها، قالت صبرية ذلك وهي تقطع ممر بيتي متجهة إلى الباب الخارجي، التفتت إليَّ وقالت: أنك على صلة جيدة بأم نوار أليس كذلك؟ لم أرد فتحت لها الباب بفعل انعكاسي ولم أسمع بقية كلمات صبرية فلقد تلاشت في الفراغ واختفت.

موسكو (الستينيات)

جلست نوار خلف مقعد سيارة نمير البيضاء وهي تعبث بمفاتيح السيارة، وأنا جالسة بقربها ونمير يقف قرب باب السيارة، أدارت نوار المفاتيح، وبضحكة عصبية وبصوت متهدج غير واثق قال نمير لا تفكري بتشغيل المحرك يا نوار أنا أمنعك.

كركرت نوار بضحكات فتية شهية دفعت رأسها إلى الخلف، أنفتح فمها الريان الصغير الدقيق وانفرجت شفتاها اللذيذتان عن أسنان لؤلؤية واستمرت تضحك، غمزت لي بعينها غمزة صبيانية تتحدث بصراحة عن اندفاع وتهكم وجرأة، غطى شعرها الأسود الطويل ظهر مقعد السيارة، وتماوجت خصلاته السوداء البراقة بغنج، وبحركة مباغتة رفعت قدمها عن الكابح وبسرعة خاطفة أغلقت باب السيارة

تاركة نمير واقفا مشدوها، أدارت مقود السيارة يساراً، انطلقت بنا السيارة مسرعة على حافة نهر موسكو الترابية المبللة،سارت بنا السيارة مسافة قصيرة وضحكاتنا تتعالى، وبتهور واضح أدارت نوار مقود السيارة ومالت بها عائدة مسرعة، مما جعل الإطارات تنغمر بالأرض الطينية الرخوة وترش رذاذا من الطمي باتجاه نمير، وقف نمير مشدوها يحمي بيديه نفسه وبدلته الأنيقة من رشات الطين والماء.

توقفت السيارة بالقرب من نمير، الذي بدا عصبيا محتد المزاج، فتحت نوار الباب وخرجت من السيارة وروح المغامرة والتحدي والانشراح يغمرها، أمالت المقعد إلى الأمام وجلست على المقعد الخلفي وهي ما زالت تضحك قائلة تفضل سيارتك تولَّ أنت القيادة وأردفت وهي تشير إليَّ خذنا إلى مطعم أرمينا فلقد اشتقنا كلانا أنا وهي إلى بعض النبيذ الأحمر.

بغداد(الثمانينيات)

هجم المساء بظلامه وحلَّ الليل وأنا في تيه، لم أع ما يدور حولي، كل ما كنت أريده هو البقاء خارج الجدران، بقيت طوال الليل جالسة على كرسي في الحديقة أراقب حركة الماء في حوض السباحة في بيتي، وطيران الحشرات حول المصباح

الكهربائي الكروي الشكل على سياج باب البيت الرئيسي، الحشرات تدور وتدور كأنها تؤدي رقصة رغبات حسية طقوسية، رقصة الاستعداد للموت، الحشرة الواحدة تتدافع مع الأخرى بهمة وحيوية وتريد أن تتسابق لتصل إلى الضوء، لتكون أقرب ما يكون إلى الكرة الزجاجية المنيرة، شدة حرارة الضوء تجتذب وترهب الحشرات، إلا أن إصرار الحشرات على الاقتراب كان أكبر من الحذر والخوف، يزداد عدد الحشرات وتتنوع أصنافها أيضا وكلها تدور في حركة متناسقة أحيانا وعشوائية أحيانا أخرى وفي النهاية تقترب كلها بإصرار لتضحي بنفسها وتحرق جسدها في معبد النور.

لم أحس بالوقت ولا بحرارة الجو فما زال الكون جامدا، كل شيءٍ قد توقف إلا التضحية بالذات التي تمارسها الحشرات. نقيق الضفادع أخذ يعلو استهوهن رائحة الماء المنبعثة من حوض السباحة، تقدمت واحدة تجذبها متعة الخوض بالماء، تبعتها قطة محاولة الإمساك بها، فرّت الضفدعة، عادت القطة غير آسفة على صيد لم يكن شهيا على أي حال، نقيق الضفادع يثقب السكون، ارتفع صوت رفيف أجنحة الحشرات، ازدادت حركة الحشرات الصاخبة العنفية وصلت ذروتها، مواء القطط غطى على كل الأصوات، ومن

بعيد ارتفع نباح كلب، إلا أنَّ الكون ما زال واقفا، جامدا، الليل فقد سواده وزهرات الشبوي الليلي لم تنشر عبيرها، أما القمر فما زال هناك معلقاً في السماء ولكنه أضاع بهاءه.

نوار ماتت وأنا لا أعرف، لِمَ لم أحسَّ بروحها هائمة في سماءات رحبة، في ساعة موتها هل تذكرت كم كنت أنتشي وأنا أستمع لضحكاتها؟ هل غافلها الموت أم جاءها مخادعا أم هجم عليها مستشرسا؟ هل ماتت في الصباحات الباسمة أم في الفجر الغافي أم في ساعات القيلولة، أم أنها ذهبت مع الغروب متسلقة أشعة الشمس الآفلة؟ يا ترى هل لفلفت وطوت روحها بتأنٍ ونزعتها عن جسدها خلسة تحت جنح الليل؟ ولكن هل صحيح أن نوار ماتت؟

هل يموت الشفق والغسق وشعاع النور ورفيف الأشجار وهديل الحمام وتغريد البلابل وخرير الماء؟ هل تموت أمواج البحر ونسمات الصبا وريح الشمال وتلألؤ النجوم وومِيض البرق وألوان قوس قزح وكركرات الصغار وقطرات الندى وزقزقات الطيور؟ فكيف إذن تموت نوار؟

قال محمد:

- سعيد سيحضر الحفلة وسيعزف على العود، وفدوى سوف تغني أغانٍ لفيروز وشكرية ستغني لأم كلثوم والشباب الكراد سيقدمون دبكةً كردية وأغاني لعارف جزراوي وشه مال صائب، مجموعة أخرى ستقدم المربعات البغدادية، كما وهناك أبوذيات وغناء ريفي وقراءة بعض القصائد والزهيريات والشعر الشعبي، نحن نتوقع حضور طلبة أجانب ونريدك عريفة الحفل لتمكنك من لغات عديدة.

واتفقنا على أن نعلن عن وجود مؤامرة صغيرة كمفاجأة ومقلبٍ، امتلأت القاعة، شاركتنا حفلتنا فرق موسيقية وغنائية من الطلبة الأجانب.

وقفت خلف المايكروفون أقرأ تواصل الفقرات، ومحمد يجلس في ركن مع أصدقائه وأشار إليَّ وفهمت الإشارة، أعلنت بصوت عاطفي حزين بأننا قد اكتشفنا بأن هناك مؤامرة ولكن لن أبوح عن ماهيتها إلى إشعار آخر، كنا نستعمل الكلمات الجديدة والتعابير المستحدثة التي تعودنا عليها مؤخرا من الأجواء السياسية التي فجاءة سيطرت علينا كلنا وقلبت مفرداتنا اللغوية، كما وأضافت إليَّها أبعاداً لم نألفها من قبل، إلا أنها كانت أبعاد بها الكثير من الإثارة والتحدي والرمزية،

بالإضافة إلى الإبعاد السياسية التي كنا نتجنب الخوض فيها قبل الثورة، وتوسع قاموس مفرداتنا ليشمل كلمات مثل المؤامرة، وإلى إشعار آخر، وترقبوا بياناً مهماً، استمعوا إلى منجزاتنا، وقريبا سيذاع عليكم خبر مهم، ويُرجى عدم التجول في القاعة، كل هذه التعابير أضفَتْ على جو الحفلة بُعدا حماسيا ونوعاً من الترقب والانتظار والتوتر.

علا صفير الحضور مطالبين بإعلان أسماء المتآمرين والكشف عن ماهية المؤامرة، قلتُ بحماس وصوتي مملوء بالعواطف الجياشة: إنَّ الشعب يريد أن ينتخب الحلوة العراقية ولكن عناصر من العهد البائد المتحالفة مع الرجعية والاستعمار تحاول العرقلة، وارتفع صراخ الحضور: نريد انتخاب الحلوة العراقية، ماذا تريدون نريد انتخاب الحلوة العراقية، يسقط العهد البائد، يسقط الشواف، يسقط الغريري يسقط أكرم الحوراني، وارتفع صوت بالغناء: أكرم الحوراني عميل أمريكاني باع الوطن والشعب، تسقط الرجعية يسقط الاستعمار والامبريالية، تعيش الاشتراكية يعيش التضامن بين الشعوب، ثم أصوات تغني أغنية: وبيتنا ونلعب بيه شلها غرض بينا الناس ما بينا الغمازة وما بينا اللمازة ميلين غاد عن دربنا ميلن غاد عن دربنا، وجاء صوت من عمق القاعة يصرخ: هربجي هربجي كرد وعرب، ثم ارتفع صوت بأغنية هره ليلي هره ليلي، نحن

أنصار السلام السلام نحن أعداء الحروب سوف نمضي للأمام للأمام نحو تحرير الشعوب. واختلطت الأصوات وامتزجت اللغات واللكنات وعلت الهتافات ماذا تريدون. يا يسقط يا يعيش.

بغداد (الخمسينيات)

تقدم عباس مني وقال: هل ستذهبين إلى غرفة الاتحاد، قلت: نعم، سرنا سوية نتحدث ونتباحث، عباس قد كلف بتقديم مسرحية لتعرض يوم المهرجان المخصص للاحتفال بالعيد الأول من أيار، وهذه تجربة جديدة مثيرة وغريبة عليه وعلينا كلنا، يريد مني الدعم والاطلاع على النص إذ كان مزهواً به ويعتقد أنه جميل ومناسب، ويرجوني المساعدة في ترشيح فتيات من أي قسم للمشاركة في المسرحية، فلم يكن هناك في قسمهم أي فتاة وطلب توفير مستلزمات إخراج المسرحية وتهيئة الملابس.

كنا نتحدث والحبور يملؤنا ونتطلع قدما للاحتفال بهذا العيد لأول مرة بشكل علني، إذ إن هذه المناسبات كانت تقام بسرية تامة وبشكل محدود جدا، والآن علانية الاحتفال والتهيئة له كانت كافية لتحفزنا على العطاء والمشاركة والاندفاع،

والمبادرات والأفكار المطروحة كانت مشجعة وأصيلة وجديدة لم تكن تخطر على بالنا من قبل، إذ يبدو أنّ الحرية والانفتاح كانا خير ملهمين لنا لنقدم الجديد والمثير والمبتكر.

تقدم منّا عبد الرزاق وقال:

- هل أنت مشغولة؟

قلت:

- نعم أنا مع زميلي، ويريد مني أن أساعده في أمر المسرحية، واتحاد الطلبة يجب أن يستجيب لمطالب الطلاب.

قال:

- أريد أن أكلمك.

قلت:

آخر زمان مسؤول الإدارة بكل ثقلها يأتي بنفسه إلى الطلبة يطلب الأذن بالكلام، هذه هي الديمقراطية الحقة ديمقراطية الكادحين.

لم يفهم عباس تعليقي، وقال:

- زميلتي أرجو أن تهتمي بما أريد ثم سلم على الأستاذ عبد الرزاق وذهب.

سألني عبد الرزاق:

- أي ساعة موعد عملك في الإذاعة؟

قلت له:

- الثانية والنصف بعد انتهاء دوامي هنا.

قال:

- سآخذك معي، سنأخذ تاكسي، قلت له أفضل باص رقم 11 أقصد ساقيّ.

قال:

- لا تكوني عنيدة أريدك أن تقدميني بصوتك لأقرأ قصيدتي الجديدة.

قلت:

- أنني مترجمة كيف لي أن أقدمك.

قال:

- أستطيع أن أقنع الإذاعة، صوتك ساحر كما وأنني أحبك أنت.. فهل هناك أجمل وأعذب من صوت الحبيبة وهي تنطق باسمي وعنوان قصيدتي؟

أدرت له ظهري وأنا أسير مسرعة ورسمت له بالهواء وبحروف كبيرة كلمة أحبك سمعته يدمدم لعينة.

بغداد(الثمانينيات)

ماتت الحشرات، أنشق الفجر وكبد السماء يتلون، ظهر لون الشفق القاني، برتقاليّ يميل إلى الاحمرار، الظلام ينهزم بهدوء متراجعا بخطوات ثقيلة بطيئة وتحول اللون البرتقاليّ الداكن إلى أصفر غامق، جاءت قطة الأمس تتمسح بقدمي

كأنها تحكي لي عن خيبتها من عشاء لم يكن شهيا، حاولت أن أسمع شقشقة العصافير وأن أمسك بخيوط الفجر، لم أرد للزمن أن يسير وللشمس أن تشرق أو لليل أن ينجلي، كنت أريد مواساة القطة بخيبتها ولها أن تواسيني بآلامي قلت لها: نوار ماتت، مسحت القطة ظهرها بساقي وأخذت تلعق أصابع قدمي، شعرت القطة أن مصيبتي أكبر من خيبتها بالعشاء المرجو ومواساتي في ألمي تفوق وتسبق مواساتها، تمطت على الأرض وتوسدت قدمي أخذت تبربر بربرة رتيبة ثقيلة متواصلة.

ما زال الجمود يسيطر على الكون رغم اختراق صوت المؤذن وارتفاع صياح الديكة، تلكأ المؤذن قليلاً وتحشرج صوته، شعرت بصلة ما تربطني بالصوت المبحوح كأنه يتعاطف معي في حزني، هذا الصوت الآتي من بعيد يبدو لي وكأنه نابع من عوالم صوفية روحية خارج هذا الزمن، يا ترى هل هناك وشائج صلة بين النفوس الغريبة لاسيما حين تسود المآسي وتفقد الحياة طعمها؟

أتعرف نوار ما أعانيه الآن؟ هل خطر ببالها يوما بأنها ستكون سببا في جفاف حلقي وتقطع أنفاسي وجمود أحاسيسي وتيبس أطرافي، نوار التي كانت سببا في فرحي ومرحي

وتمتعي بساعات أيامي، وكان لها القدرة أن تحولها من الكآبة إلى السعادة، بلمسة والتفافة وببسمة كانت نوار تضفي عليها شعاعا وبريقا وكأنها تمسك بعصا سحرية تغير ما تريد وتحرك ما تشاء وأنا مصغية أطيع عصاها المجهولة الخفية التي تقلب الغم والهم فرحة وبهجة.

كركوك (الستينيات)

عدلت ليلى من فراشها بهدوء، رتبت الشرشف والغطاء، قالت:

- بعد قليل سيأتوننا ببعض الماء ويسألوننا أن كنا نريد طعاما، سكتت برهة ثم قالت: أنا جلبت معي بعض الأكل هل تريدين مشاركتي أم ستأكلين أكل سكك حديد الحكومة العراقية.

قلت لها:

- لدي فاكهة وهذا يكفي .

رحلة القطار من كركوك إلى بغداد ستستغرق الليل كله ولكن الأحاديث مع ليلى ستكون شيقة فهي صديقتي على أي حال وأخت حبيبي، بدأنا بترتيب صحون الطعام وهيأنا مائدة صغيرة شهية، فراش ليلى كان يعلو فراشي فاقترحت عليها أن تشاركني فراشي إلى أن يحين موعد نومنا، ضحكت وقالت:

- يا ترى هل سننام ولكل واحدة منا هواها وحبها، الآن سنتحدث عنهما وننسى أنفسنا حتى الصباح.

تشعبت أحاديثنا ولكنها لم تخرج عن محور الهوى، كل منا لم تجد الرجل الذي تريد أن ترتبط به مطابقا لما متعارف عليه، ومهما نحاول إيجاد الحلول التي نعتقد بأنها تقليدية إلا عند التمعن فيها نجدها ستحدث ضجة، وكما يبدو لي أن ليلى قد استسلمت لليأس تماما، فكانت تتفادى الحديث بصيغة الحاضر عن حبها ودعت صيغة الماضي تطغي وتسيطر، ويبدو أنها قد استسلمت لواقع مرير لا ترضاه ولا تريده، خنعت وخنقت ما تصبو إليّه وفقدت القوة في التحدي والتزمت الصبر والسكون، كما وأنها كانت تجعلني موضع الحدث، قالت ليلى:

- أنا أتحدث مع عبد الرزاق بفرح عنك عند ذكرك أجد عينيه تلتمع ببريق واضح وكأن ضوء يشع منهما وتمتزج نظراته بابتسامة مرحة.

سكت، بقيت صامتة، هل أقول لها حقيقة مشاعري؟ أنا نفسي لم أكن أعرف حقيقتها رغم أن الصورة قد توضحت، كنا ثلاثة في المعادلة وأصبحنا أربعة أو خمسة إذا حسبنا حساب موازين عبد الرزاق الجديدة الطارئة كضلع مستجد، لا أعرف كيف أُجابه ليلى وفرحها وأقلبُه همًّا، وهذا البريق في عيون

عبد الرزاق كيف سينطفئ هل سأستطيع أن أقلع عبد الـرزاق من نبض عروقي أم أن الضلع الرابع في المعادلـة سيـسهل الأمر عليه وعليَّ وسيكون العذر الذي أختفي خلفه وأتحجـج وأحتمي به، كما ويجب أن يحتمي هو به أيضاً، ولن أبوح لـه بمعرفتي بموازينه الجديدة التي صدمتني حتى اقشعرَّ بدني منها ومنه فمواجهته بها ستكون فوق طاقتي.

تعالى صوت ارتطام عجلات القطار بالسكة الحديدية، فتحت نافذة القطار، دخل هواء مشبع بالغبار أغلقـت النافـذة بقيت ساهمة.

موسكو (الستينيات)

أخرجت بطاقتي الشخصية التي تحدد مكـان سـكناي ودراستي للمرأة المراقبة التي تجلـس قـرب بوابـة جامعـة موسكو، نظرت المرأة بتمعن فيها وسمحت لي بالدخول، الوقت متأخر، عدت من يوم عمل طويل في الكلية ومن ساعات مـن تقليب الكتب والمراجع في مكتبة لينين، بعـدها ذهبـت وأنـا منهكة، إلى القسم الداخلي التابع للكلية التي تدرس فيهـا ثريـا زميلتي من سوريا، إذ بحثت معها برنامجاً مكثفـاً لمـشروع دراسي قد تساعدني فيه، العمل كان معقداً ويتطلـب البحـث

الدقيق والتقصي والمصادر والكتب باللغة الروسية التي لا زالت ترمي بثقلها علي.

بناء جامعة موسكو على الطراز الغوطي الفخم جدا، الذي أول ظهوره كان يعتبر من الطرز الفجة وغير مقبولة، ولكن بمرور السنين جرت على هذا الطراز المعماري تحويرات وتعديلات هذبته وشذبته وتقبله الذوق الأوربي، لكنني لا أفهم لم أختير هذا الطراز لجامعة موسكو وبقية البنايات التي شيدت في وقتها وكلها مطابقة الواحدة للأخرى في بلد تراث طرازه المعماري أبعد ما يكون عن الغوطية.

سرت في الساحة الواسعة حيث الأعمدة الكبيرة من المرمر الحليبي المصفوفة على شكل دائرة على أرض من المرمر البني، الأضوية شبه خافتة وهذا المدخل الفخم الواسع هادئ وخالٍ من الطلبة في هذه الساعة، كنت متعبة وأنا أرتدي معطفي الفرو الثقيل أجرجر أقدامي المختبئة والمحمية من ثلج موسكو، بجزمة مبطنة بالصوف والفرو، وكفّاي محشوران في قفاز سميك جداً يباعد بين أصابعي وتفقد ألفتها وقابليتها للاحتفاظ بكتبي، وأنا أنوء بحمل كتبي وأوراقي ودفاتري بين كفي وقسم منها مختبئ في حقيبتي المعلقة على كتفي، سقط مني كتاب ضخم وأحدث سقوطه وارتطامه بالأرض

المرمرمية ضجة، على إثرها سمعت شهقة ثم قهقهة امرأة التفت فوجدت ثلاثة من زملائي كلهم من القياديين وكل واحد منهم قد احتضن فتاة شقراء واتحد بها وألصقها على أحد تلك الأعمدة الرخامية، وحالة من الشبق والنهم الجنسي قد تلبستهم، يبدو أن صوت سقوط الكتاب شوش موقف التلاحم الجنسي الحميم لإحدى الفتيات فجفلت ثم ضحكت.

لملمت أوراقي التي توسدت الأرض المرمرية، طويت صفحات كتابي المستلقي على الأرض الباردة، سرت باتجاه المصاعد التي ستأخذني إلى الطابق العشرين ومن هناك أخذ مصعد آخر إلى الطابق الثاني والثلاثين حيث أسكن في القسم المخصص للفتيات فقط.

في طريقي انعطفت نحو أحد المطاعم الطلابية، حيث الموائد التي في وسطها سلات مليئة بالخبز الذي يوزع مجاناً، أخذت حفنة من الخبز وواصلت سيري باتجاه المصاعد، سمعت صوتا يناديني زميلة رجاء، لم أستدر، ولكن الصوت أقترب مني وكان وأحداً من الزملاء الثلاثة قال لي بكثير من الجدية وبنبرة أمرة :

- زميلة غدا موعد زيارتنا لضريح لينين، التجمع قرب الباب الرئيسي الساعة التاسعة صباحا سنجدك هذه المرة في الانتظار وليس مثل المرات السابقة.

إذ تخلفت أكثر من مرة نظرت إليَّه بكثير من اللامبالاة وقلت:

- أرجو ألا تنتظروني هذه المرة أيضا، فلقد قلت لكم أكثر من مرة أنا لا أزور ميتا محنطاً إلا إذا كان مومياء في متحف ويا حبذا لو كانت مومياء فرعونية.

قال:

- يجب أن نناقش هذه الطروحات، يبدو لي أنك ما زلت تنتمين لطبقتك البرجوازية،

أنفتح باب المصعد، وبسرعة دخلت وأنا أقول له "بل الأرستقراطية"، وضغطت على الرقم عشرين وأغلق باب المصعد بوجه الزميل القيادي.

بغداد (الثمانينيات)

اقترب زوجي مني بهدوء محترما صمتي ووجومي، ماسكا بيده كتاب العنف والصخب لوليم فوكنر، مد يده بالكتاب إلي قائلا:

- كتابك الذي يزيل كآبتك هل تريدينه؟

نظرت إليَّه نظرة شكر وامتنان وأنا أحتضن فوكنر بكل صخبه وضجيجه وعنفه، كم يعرف هذا الرجل مداواة جروحي، قلبت أوراق الكتاب وقلت في نفسي آه يابنجي أين

لي من براءاتك، لقد ولى زمن البراءة أين كادي يـــا بنجـــي* كادي من فقدت وأحزنك فقدها إلا أنك ما زلت تناديهـــا لأنـــك بريء يا بنجي، ما زلت تعيط وتبكي طالبا كادي، أما أنا فقـــد فقدت نوار ولن أناديها ولن أعيط وأصرخ أين سأدفن ألمـــي؟ من كثرة الأموات لم يعد هناك مكان لدفن الألم، حتى صدري امتلأ بتأوهات أهل الأسرى والمفقودين والشهداء، فأنا أعـــيش زمن القبور والأموات والحسرات، زمن العفن والنتانة، ضاع العيش في زمن الصفاء والبراءة حيث الضحك والبكاء يترادفان أو يتناقضان وكلاهما يملأن الأحداق بدموع صافية، فأنا أعيش زمنا مدنسا تماما، يبس مشاعري ونشف اهتمامـــاتي، زمـــن أفقدني نوار وحبس دموعي التي كنت أذرفها عندما يلقى عبـــد الرزاق قصائده، رغم تباعدي عنه ورفضي لموقفه من ليلـــى، إلا أن حروف قصائد عبد الرزاق بقيت تنزل كقطرات النـــدى على مسامعي رقيقة شفافة طرية ناعمة تنبع منها الحياة، أصبح صوت عبد الرزاق الآن مخنوقا بالبلاهة والشراهة، أنظر إليَّه عبر شاشة التلفزيون ولا أرى سوى مسخا يحرك يده ويقـــوم بحركات ويخرج أصواتاً، رغم قـــوة كلمـــات عبـــد الـــرزاق واستعماله للغة بكل أبعادها إلا أن رنينها اختفى، ولونها كشح، لم تعد حروفه هي البدء والمنتهى، أصبحتُ أكره اللغة وكل ما

يرتبط بها إذ هي الآن الغم والكرب، إنَّ عبد الرزاق هو اللغة، وماتت اللغة على شفاهه موتا قاسيا لئيما حقيرا.

خنقني ألم انتحار عبد الرزاق في داخلي، إلى سنوات طويلة مضت كان عبد الرزاق حيا نابضا فيّ، يشبه حياة الحروف وأصواتها ونغماتها ويوازي تدرج الألوان وإشعاعاتها، الحروف التي نشكلها لنصنع منها أحاسيس الحب والحنان، أو حتى الألم والفراق والوجع، والألوان التي تبهج وتحزن، كان معي في قراءتي وفي تتبعي للأدب والفن وفي انغماسي بحياتي، من سنين طويلة مضت عفنا بعضنا باختيار ووعي، حينها ألغيته كحب لم يعد هوى أو غراما، لم يعد حسا محددا بل أفقا واسعا، أصبح تراثاً استنير به، لم يعد الرجل بل أصبح القول والكلام والصوت واللون الذي أعتمد عليه وأسترجعه كلما عصت اللغة علي واختلطت الأحاسيس والمشاعر، وتبعثرت الأشكال الألوان وتاهت الجمل وضاعت التعابير. ولكنه فضل لغة الفناء اختار الموت على الحياة، منحني موته بجرعات صغيرة مسمومة مغموسة بالعذاب، كلما ظهر يمجد العار، وما أن يعلن عن قرب ظهوره لإلقاء قصيدة يمدح فيها حكم الطغاة القتلة ويمجد حزب البعث حتى أحس بأنه قد تحول إلى جثة مكشوفة غير مكفنة متفسخة تنبعث منها

النتانة والجيف، جثة تتحرك أمامي تمد ذراعين مشوهتين ينز منهما القيح بسيولة ووحشية، عيون يوما ما كانت مضيئة تحول وهجها إلى أفاع وعقارب تتحرك بهوس في كل الاتجاهات، مسعورة تلدغ بقسوة ونهم وشراهة حيوانية مدنسة، تحاول التهام كل ما يقع أمامها. تتسمر مشاعري وتجمد تعابير وجهي، وبرعب أبقى محملقة بالشاشة بعيون جامدة فقدت وميضها وجفون متصلبة، أهداب فقدت رفيفها، ثم بصَمْتٍ وحكمة يغلق زوجي جهاز التلفزيون ويقول:

- ماذا ستقرأين لنا الليلة؟ أي مسرحية؟

أقول بصوت بعيد ذاهل كأنه قادم من السحيق من العالم السفلي

- هبط الملاك في بابل لدورنمارت

- وأي دور ستأخذين

- عاقي الشحاذ

وينتهي دوري في تقمص عاقي الشحاذ ويأتي دور زوجي.

يضحك زوجي ضحكة تعيد الحياة لي، بعنفوان وحب أستعذب صوته الرجولي الخشن الذي يحتويني وهو يقرأ لي مسرحية جزيرة الماعز، وأنا ممدة بجنبه ملتصقة به لافة ساقي بساقيه مستطعمة ملامسة جسده واحتكاك ومداعبة إبهام قدمي لقدمه، أستند على كتفه القوي وبأصابعي أعبث بشعيرات صدره التي لونها الزمن بلون فضي محبب، تتخلله ظلال من

الرمادي الأشهب الغامق، وبالكف الأخرى أشبك أصابعي النحيلة بأصابعه القوية الضخمة وأصبو إلى أن تنغرس في كفه لتورق. أخفي رأسي بين صدره ورقبته وأتنسم عبير جسده وأحس بالحرية والأمان والنشوة ورغبة عارمة أن أذوب فيه وأتلاشى بين ذراعية، وتنزلق قبلاته طرية ناعمة شفافة من أعلى رأسي لتصل جبيني وأهداب عيني ورقبتي، وأحس بخدر لذيذ يسري في كياني ثم أنهض بعد برهة بنفس جديد وأنا كلي عافية ممسكة بيده أجرّه معي لنتفقد أطفالنا في الغرفة المجاورة.

بغداد (الستينيات)

كنت أتوقع قدوم ليلى إليَّ كعادتها كل يوم تقريبا بعد انتهاء ساعات الدراسة، لذا وقفت قرب البوابة الكبيرة أنتظرها كنت أحسّ أن عبد الرزاق يراقبني، شعرت بنظراته تخترق ظهري تبدأ من أعلى رأسي حيث شعري الطويل مربوط إلى الخلف بباقة من الورود الحريرية البيضاء، خصلات شعري تحس بدفء نظرات عبد الزراق خصلة خصلة توعزني بتلك النظرات، تنحدر نظراته لتصل إلى رقبتي وتنزلق إلى خصري وتتريث قليلا ثم تنساب إلى ردفي وساقي وترتفع مرة أخرى

إلى خصري، لم ألتفت فلقد استحليت هذه النظرات وخفت لو استدرت لأشاح عبد الرزاق بنظراته عن ظهري وفقدت هذا الشعور المفعم بالرغبة والامتلاك، تتأخر ليلى في الحضور ويطول وقوفي واستمتاعي بتلك النظرات التي تخترقني، وأسمع صوت عبد الرزاق عن بعد يتحدث مع العم مطر ويسأله عن المولودة الجديدة ويردد اسمها وتعترينى رغبة جامحة أن أذهب وألفّ عبد الرزاق بذراعي وألصق شفتَيَّ بشفتيه واستطعم مذاقه.

أشوف ليلى قادمة عن بعد تسير بخطواتها البطيئة القصيرة وشعرها الطويل الحني ينزلق مغطيا ثدييها النابضين، كانت ترتدي فستانا أحمر جميلاً، ابتسمت لها وقلت من المستحيل أن نذهب اليوم إلى الأعظمية وأنت بهذا الفستان الأحمر، ضحكت وقالت سنذهب إلى شارع النهر، إذا كانت الأعظمية تنادي بوقف بيع الطماطة والرقي بسبب لونهما الأحمر فيا ترى ماذا سيحدث لي وأنا مرتدية الأحمر عن سبق إصرار وأحمل بيدي هذه الجريدة. قلت لها الجريدة ممكن إخفاءها ولكن بدلتك يصعب تغيرها.

سرنا متجهتين نحو موقف حافلات نقل الركاب، لم أنظر إلى الخلف تناسيت وجود عبد الرزاق خلفي مسكت بيد

ليلى وعبرنا الشارع ووقفنا بمواجهة البوابة الكبيرة، لمحت عبد الرزاق وكأنه يبدو ضجرا، لم أهتم انشغلت عنه بالحديث مع ليلى، وحتى ليلى لم تكترث لوجوده، كأنها تعمدت أن تتجاهله، حتى لم ترفع يدها لتحييه بل قالت بكثير من اللامبالاة ذاك أخي واقف هناك، وصلت سيارة مصلحة نقل الركاب الكبيرة الحمراء وحجبت علينا عبد الرزاق، قررنا الذهاب أولاً إلى شارع الرشيد لمطعم عمو إلياس لتناول الغذاء ثم الذهاب إلى شارع النهر لنرى ما قد وصل من احدث الأزياء فلقد كنت أريد أن أختار ثوبا جديدا لعرس أختي القريب.

موسكو (الستينيات)

كان محمد يكتب على قصاصات ويرسلها لي كل مرة مع شخص مختلف ومن مكان مختلف من القاعة، القصاصات تحوي على بيانات تأييد من قطاعات مختلفة من الطلبة، من أقسام داخلية وكليات متفرقة يدرس فيها الطلبة في موسكو، طلبة السوكول يشجبون عرقلة انتخاب الحلوة العراقية، طلبة كلية العلوم يدعون إلى إجراء انتخابات الحلوة العراقية بالسرعة الممكنة، شجب واستنكار غير محدود وتصفيق وتشجيع متناه.

أعلنت عن فتح باب الترشيح للفتيات للتقدم لاختيار الحلوة العراقية، كل واحدة تتقدم يجب أن ترشح من قبل شخص واحد على الأقل، علت المنافسة واحتدمت، بدأنا بكتابة قائمة أسماء المرشحات، لم نطلب منهن الحضور على المسرح، بل كل واحدة وقفت لمدة ثوان عند قراءة اسمها، وأعلنت عن تقديم أسباب الترشيح من قبل الذين يرشحون الفتيات، وبيان أسباب الترشيح، ويجب على المرشحة أن تحمل بالإضافة إلى صفة الحلاوة صفات أخرى مثل الاجتهاد والتميز لتكون أهلا لهذا اللقب، وعليها كذلك واجبات اجتماعية مهمة، إذ يجب عليها أن تحضر الاحتفالات وترعاها وأن تشجع التقدم الدراسي وتحفز الطلاب عموما على النشاطات الاجتماعية وطالت الواجبات وتشعبت.

وبدأت الخطابات تعلن الأسباب الموجبة لاختيار المرشحات، وكل مجموعة تصف مرشحتها وتغدق عليها الوصف وتؤكد بأنها أهل لتحمل المسؤولية، علت الهتافات بحياة المرشحات المتنافسات وكأننا في انتخابات حقيقية، وبدأنا بتسلم وريقات الانتخابات وبدأ العد وفرز الأصوات، ومحمد يرسل بالأوراق الانتخابية وكلها تجمع على انتخاب نوار، الجو أصبح هرجا ومرجا والموسيقى ترتفع والسبورة تمتلئ

بالخطوط البيضاء المائلة إشارة للأصوات، وفازت نوار، وبأسلوب ديمقراطي حقيقي تمت أول عملية انتخابات عراقية.

بغداد (الخمسينيات)

تركت البيت مسرعة، ارتديت فستاني الجديد الذي خيطته بنفسي، إذ سهرت لبعد منتصف الليل لإنجازه الليلة الماضية، فستان من قماش كتان الموجاشيل الثمين، مورد بورود خضراء فستقية اللون صغيرة جدا وأنيقة تصميم ربيعي جميل جدا، جعلت اليَّاقة مربعة ومفتوحة بعض الشيء،خيطت سحاباً طويلاً للظهر وتعمدت أن يماشي فصال الفستان الموضة السائدة ضيق من الخصر، يبدو خصري نحيفاً جدا، فرحت لمظهري وأنا أنظر في المرآة، عقدت شعري بشريط أبيض محلى بزهور صناعية حريرية، سرت مسرعة باتجاه منطقة وقوف السيارات العامة.

أمامي طريق طويل لن يقل عن الساعة كنت متلهفة للقاء، سألقى عبد الرزاق وأفرح به ويفرح بي وسأحاول مرة أخرى اختبار مشاعري، فلقد حفظت أسئلة الامتحان التي هيأتها لنفسي، سأمتحن نفسي سأعرف حقيقة مشاعري اليَّوم، هذا كل ما يهم الآن، ولن أتمادى أكثر لو رسبت في الامتحان،

سارت الحافلة ثقيلة متباطئة، تعدت الباب الشرقي واخترقت شارع الرشيد، مرت الحافلة بمحلات حسو إخوان ثم دائرة البريد المركزي والبنك الزراعي ومحل جبار أبو الجرائد ومقهي البرازيلية ومطعم عمو إلياس ومحل دلال ثم كشمش إخوان لبيع أدوات الرسم ومحل عبد الغني الخليلي وخياطة عاصم فليح للملابس الرجاليَّة واورزدي باك وحافظ القاضي، وأنا أتتبع أسماء المحلات، أرجو الحافلة أن تسرع، نظرت يمينا لمحلات عبد الأمير الصائغ للأحذية، تذكرت أن أخي الكبير كان قد حدثني عنه، كان مغنيا جيدا لديه أغنية أخي يحبها جدا ويغنيها دائما مطلعها عيناك عيناك أصل صبابتي وهل مرآك هيج أشجاني..... الوصل بأن في عينيك بعد الجفا .. آلمتني يا ليتني ما كنت ألقاك. ابتسمت لنفسي وتساءلت يا ترى هل عيناي أصل صبابة عبد الرزاق، لن أساله هذا السؤال السخيف فالأسئلة موجهة لي أنا، التي يجب أن تعرف الإجابة لا هو، عدت أنظر إلى ساعة معصمي لكي لا يفوتني موعدي لا أريد أن أتأخر عليه لا أريده أن ينتظرني طويلا، وفي باب المعظم توقفت الحافلة ونزل الركاب وأنا معهم لأستقل حافلة أخرى.

في طريقنا إلى مطعم أرمينيا طلبت من نمير أن نزور بسمة والأطفال، كنت أريد أن أرى أولادها الصغار لم آرهم منذ يوم أول أمس، عباس الصغير متعلق بي جدا وأنا كذلك لا أدري هل يذكرني ببشار، بشار كان يعرف موعد عملي يقف في زقاق بيتهم ينتظرني، وما أن يلمحني حتى يفرد ذراعيه راكضا نحوي، يصل رأسه خصري، يحتضنني يلف ذراعيه حول خصري ويشبك كفيه وأصابعه عند ظهري بقوة ويقول: اليوم لن تذهبي، أبقي معي سأحكي لك قصة، لن أدعك تذهبين سأحكي لك قصة وأغني لك نشيداً جديداً تعلمته في المدرسة، يبقى يعيد ويكرر ما قاله بسرعة وإصرار، إلا أنني أهدده بأن يكف وإلا سأحمله على ذراعي مثل ولد صغير، يشاكسني وبفرح طفولي يقول احمليني احمليني وأحمله وأحتضنه ويهمس في إذني تأخري قليلا عندنا فالليلة سيأتي عبد الرزاق اضحك لشقاوته ولإحساسه بما يربطنا عبد الرزاق وأنا وتغمرني فرحة.

بعد زيارتنا القصيرة تلك واصلنا طريقنا، وجاء معنا مهند أيضاً إلى مطعم أرمينيا، جلسنا أربعتنا نثرثر عن حكايا لا معنى لها، كنت أفتقد المجلات الأدبية التي تصدر في

العراق ولبنان كان لدي عطش شديد للقراءة، إذ ما زالت اللغة عشقي الحقيقي مازالت نابعة حية في وجداني تعيدني إلى أيام تخليت عنها بإرادتي.

أحاديثنا هنا محورها أخبار الطلبة والفضائح والإخفاقات، وانتقاداتنا للمحيط الجديد الذي سبب لنا صدمة سلبية معظم الأوقات، ولكن لم ننكر وجود الإيجابيات، موعد نهاية السنة الدراسية قد قرب وكنت متشوقة للعودة إلى بيروت حيث والدي ومن ثم إلى بغداد حيث بقية العائلة، كنت أرفض بإصرار شديد الانضمام إلى فريق الطلبة الذي يشاركون الطلبة السوفيت في الحملات الصيفية الطلابية للعمل الجماعي، إنَّ كان العمل في المزارع التعاونية أو يأخذ أي صفة تدريبية أخرى، فلقد سمعت عنها الكثير من صديقاتي السوفيتيات، وعرفت عنها ما يرعب أو ما يثير التقزز لمدى الفساد الإداري والمالي وتضييع وقت الناس في عمل لا يتجاوز كونه سخرة واستغلال لطاقات بشرية رخيصة.

سألني مهند:

- هل ستسافرين إلى بيروت؟

قلت:

- نعم،

قال:

- وتتركين نمير وحيدا؟

قلت:

- أنه يستطيع أن يعتني بنفسه ولا يحتاجني، لقد اشتقت إلى أهلي وصديقاتي.

قال نمير:

- ألن تشتاقي لشخص آخر؟

قلت:

- لا أبدا لا يوجد أي شخص آخر.

قال مهند مشيرا إلى نمير قلت:

- من يعرف ماذا تخبئ الأيام؟ لماذا نخطط ونحن مسلوبو الإرادة أصلا.

بغداد (الخمسينيات)

أمسك عبد الرزاق بيدي بلطف، لم يضغط عليها، شعرت أن يدي تحولت إلى ورقة بيضاء من تلك الأوراق التي يكتب عليها قصائده، بقي ممسكا بها، شعرت بدفء أصابعه وبرودة يدي، نظر إلى أصابعي وقال: جميلة أصابعك طويلة ونحيفة تصلح لعزف موسيقى.

كان يجلس على كرسي واطئ، أنا اخترت كرسيا مرتفعا ومريحا كنت شبه مستلقية ومسترخية تماما، أحس

وكأنني قد ملكت الدنيا، لم تزعجني كل المعوقات التي بيني وبينه، أردت أن أمسك اللحظة التي نحن فيها أؤطرها وأحولها إلى لوحة أعلقها على جدار متحف العواطف لتبقى خالدة، تخيلت العشاق من جنسيات مختلفة يزورون قاعات العواطف تلك وهذه اللحظة المؤطرة في صدر القاعة الرئيسية، ابتسمت، همس لم تبتسم حبيبتي؟ لم أرُدّ، الصمت بيننا كان أجمل من الكلام، أوضح وأبلغ.

لم يهمني إن كان يصمت كثيرا، وهو أيضا لم يطلب مني الكلام أو التأكيد على جموح عواطف والتهاب مشاعر، أحاديثنا كانت مختصرة مقتضبة، كلمة واحدة مني له تعني الكثير، ونظرة منه تبوح لي بالكثير وتطلب المزيد، جلوسنا سوية كان السعادة القصوى، نقترب من بعضنا يلتصق كتفي بساعده، أحسن نعومة قماش قميصه، وأتنفس رائحة صابون تفوح من وجهه، وأميز العلامة وأقول بالموليف، يضحك ويهز رأسه مؤيدا، ثم انبعاث رائحة سكائر غازي من بين أصبعيه الوسطى والسبابة وتلونهما بلون أصفر بني تطربني،، يفتح علبة سجاير غازي بغلافها الذهبي المشع، يتناول سيجارتين يضعهما بين شفتيه الرطبتين وأرى لهيب نار، يأخذ نفسا عميقا من كلتيهما وكأنه يمتصهما ويضع واحدة بين شفتي، ما زالت

السيجارة رطبة من رضابه، منعشة محملة بأنفاسه وأنا أستنشق دخانها كأنني أحتويه بين أنفاسي وأضلعي، ولكن يبقى الصمت البليغ سيد الموقف وكلانا نخضع له بإجلال واحترام.

كتفه كان يطب لي، أرخي رأسي علية رغم بروز عظامه، وأحس بانغراس عظم ترقوته وعضده في وجنتي بقوة وحدة، إلا أن حالة التسامي والتجلي تلك تبعد الإحساس بالوجع بل يتحول الألم إلى نشوة وطرب.

بغداد (السبعينيات)

رن جرس التلفون، لم أتوقع أن يتصل أحد في هذه الساعة المبكرة، سمعت صوت زكية تقول:

- صباح الخير أنا أعرف أنك من زرازير الغبشة لهذا اتصلت مبكرا، لدي عرض مهم، قررنا تشكيل وفد تهنئة بمناسبة 11 آذار للذهاب إلى كلالة لرفع التهاني للملا هل ترافقونا؟
- والأطفال هل نستطيع أخذهم معنا؟
- طبعا فإن الوفد سيتألف من عوائل وليس أفراد
- مثل من؟
- سميرة وقتيبة والأولاد رافد وعائلته محمد وغني وزوجته.
- هذه الأسماء تكفيني سنشارك معكم.
- ألن تسألي الزوج أم الأمر والنهي بيدك.

- الأمر والنهي مشترك وأعرف أنه سيتحمس لهذه المناسبة، ماذا تتوقعين بعد سنوات من العشرة، يجب أن أعرف زوجي جيدا وإلا لكنت أعيش في عالم بعيد عنه.

- الساعة السابعة غدا موعد الرحلة.

- بهذه السرعة نحتاج وقتاً لتهيئة المأكل والمشرب و..

- لا داعي، جهزوا ملابسكم ونلتقي غدا عند بيت سميرة فإنّ المُلا قد هيّأ كل شيء لنا وهم بانتظارنا.

أنشق الفجر عن زقزقات العصافير ومن بعيد سمعت هديل فاخته ورددت معها

- كوكو أختي

- وين أختي

- بالحلة

- شتاكل باقلاء

- شتشرب مأي الله

صفق الأطفال لهذه الأغنية فرمز الحمامة مهم في بيتنا وهديلها يمتزج بغنائنا ويشجينا أخذ الأطفال يرددون معي أغنية الحمامة، وهم يتراكضون في الصعود إلى السيارة فإن عدوى الحماس قد أصابتهم.

تجمَّعنا كلنا أمام بيت سميرة في المنصور، وتأكد الرجال من سلامة السيارات ووجود الإطارات الاحتياطية وغيرها من المستلزمات لسفرة طويلة إلى كلالة.

قالت زكية سنتوقف في كركوك إذْ سيلتحق بنا مجموعة من المهنئين وهم فكرت ونجدت وعائلتهما ويلماز والعائلة، ثم نصل أربيل وسنقضي الليلة هناك في بيت كاكا حمة وكاكا مجة ثم صباح اليوم التالي ستأتي سيارة من كلالة مبعوثة من قبل الملا لمرافقتنا.

زوجي يسوق بطرب وكأنه يعزف على آلة موسيقية يلاعب أوتارها بوجد وحنين لا ممسكا بمقود السيارة، الحماس والانفعال كانا قد أخذا مأخذيهما منا إذا بقينا نردد الأغاني الوطنية الكردية والعربية، والأطفال في حيرة من أمرهم إذ لم يسمعوها سابقا وأخذوا يرددون كلمات هر بزي هر بزي ويسألوننا المعني والضحكة تملأ أفواههم الصغيرة.

طال بنا المرح وتمادينا وأخذننا نعلم أطفالنا بعض الكلمات، وأخذوا يرددونها بينهم الصغير يقول لأخته جوني خوشكا وأخته ترد عليه زور باشي كاكا

- ناسر صن
- جوخ أبي
- جوني خوشكا

- زور باشي
- داخيوت
- رابي سباي
- إينتش بيسيس
- شات لافي
- نا وار
- نا يوخ

وأصبح لهذه اللغات الجديدة عليهم وقعها المثير وتحمسوا لمعرفة المزيد واحتدمت المنافسة بالصغار لتعلم هذه الكلمات المثيرة والجميلة والتي تهيئهم لأجواء كركوك وأربيل، ورحت أقلب صفحات الذاكرة عن مفردات وجمل انحفرت في الوجدان منذ الطفولة البعيدة.

لم نشعر إلا ونحن في كركوك أمام بيت فكرت ونجدت اللذان التحقا بنا، تجولنا وتمتعنا في شوارع ومحلات كركوك وتفرجنا على الخاصة صو الذي ما زال في انتظار مياه روافد دجلة ليمتلئ بها فرحا ويهلهل صخبا، غمرني شوق للجسر الحجري الغائب (داش كوبري) والذي كنت أقطعه يومياً ذهاباً للقلعة، حكيت عن جمال بساطته لعائلتي التي لم تشاهده.

تغدينا كباب عند عصمان، ولم تفتني فرصة شراء فخاريات طوزخرماتو، وليف كركوك الناعمة للاستحمام أما

الصغار فأخذوا يلتقطون كلمات جديدة خلال تجوالنا في كركوك وأخذت تزداد مفرادت قاموسهم المتعدد اللغات ويعلو ضجيجهم كلما أضافوا كلمة جديدة.

واجهتنا قلعة أربيل بشموخ وكأنها تشجعنا على مواصلة سيرنا، بحثنا عن بيت كاكة أحمد في دروب أربيل العتيقة عتق التاريخ، ووجدناهم بانتظارنا كانت الرحلة قد استنزفتنا والصغار هدهم التعب، كما وأن حماسهم واندفاعهم وتركيزهم لتعلم جمل طويلة بعدة لغات مختلفة أرهقهم، كانت ليلة جميلة بها عنفوان من الحماس والحبور والخوف من المجهول والترقب والإحساس ببوارق أمل تبدو بعيدة في الأفق، كلها تجمعت في الخاطر لتضفي متعة جديدة على حياتنا الحذرة القلقة، لم نحس بنشوة الفرح من سنين إلا أنَّ هذه الأيام لونت ساعاتنا بألوان لم نكن نتوقعها.

الطريق من أربيل إلى السليمانية كئيب جدا، لم أميزه إذ إنَّ أيام الصبا كانت قد لونته بالأزهار المتنوعة المنبعثة من حقول من الزعفران الأصفر والبابونج الممزوج بالبياض وورد البنفسج والأرض السندسية، كلها اختفت، أجد أعمدة مقطوعة الرؤوس، وأسلاك التلفونات متدلية تفترش الأرض كالثكالى

النائحات تبحث عن صوت حبيب وعن لهفة أب وهمسة لوعة غريب.

أشجار قتيلة وروابي مقفرة، السواد بأنواعه، سواد الدخان وسواد الموت وسواد الفراغ الرهيب، الطرق خالية إلا من بضع سيارات محملة بالأسلحة وبنايات خربة تطل بأسى على جانبي الطريق، بيوت مهجورة غاب عنها سقفها وتهدمت جدرانها منزوعة الأبواب مشرعة الشبابيك لا ترحب بالقادم بل تشكو له همها، وما زالت تئن جدرانها المهدمة من ألم طلقات الرصاص على أدميها وتصبو أن تعود لعافيتها وزهوها.

سيارة الحماية التي وفرها لنا الملا، كانت تقود قافلتنا مفسحة الطريق أمامنا تشير إلى السيارات العسكرية أن تبتعد عن سبيلنا، أخذت الحفر تتكاثر في الطريق وبالكاد كنا نرى شوارع معبدة، بل طرقات ترابية قد جرحتها عميقا الدبابات المجنزرة وصواريخ الكاتيوشا، ما زالت الحيوانات النافقة مرمية بعيدا في الحقول التي كانت مثمرة في أيام قد أفلت، والتراكتورات الزراعية المعطلة والصدئة مقلوبة على جوانبها تحكي عن الذل والعبث والهوان الذي أصابها وعن الحصد والزرع والبذر الذي أصبح ماضيا منسيا.

وصلنا كلالة الجميلة، تسلقت سيارتنا الطريق الجبلي المرتفع بصعوبة ولكن كلالة كانت بأبهى حلتها وتبتسم لنا، أخذنا دليلنا إلى منطقة مكشوفة مرتفعة، وأشار علينا أن نصف سياراتنا، وما أن ترجلنا حتى وجدنا أنفسنا محاطين بثلة من الرجال وصوت يصيح بي شولنج خوشكا شلونج زميلة، عرفت الصوت ولم أتردد لحظة واحدة بالرد بصوت عال:

- كاكة حبيب أنت هنا وية الجماعة؟

- أنا السكرتير الشخصي للملا.

أسرع زوجي نحوه واحتضنه، وبقيا فترة متلازمين وكاكا حبيب يقول له:

- داير بالك على الخوشكا امدللها ترى هاي خاتونتنا.

صافحت كاكا حبيب وبقينا متماسكي الأيدي وكلانا تملؤه الغبطة والحبور قلت له:

- لم أكن أتوقع أن أراك هنا.

قال:

- بل كنت أنتظر قدومك لأرى أطفالك وأستعيد ما أنقطع مع أستاذي العزيز زوجك.

تقدم منا ابني البكر قائلا للكاكا حبيب:

- أمي علمتني أربع لغات وأنا الآن أتكلم الكردية والتركمانية والأشورية والأرمنية.

- ومتى علمتك أمك كل هذه اللغات.

- يوم أمس ونحن في طريقنا من بغداد إلى هنا.

- إذا أنت الآن تتكلم ست لغات إذا حسبنا العربية والفرنسية؟

- هز ابني رأسه علامة الموافقة وقال هل أستطيع أن أمسك بندقيتك؟

- ضحك كاكا حبيب وقال لا أعتقد أن أهلك يوافقون على أن تحمل السلاح.

قادنا كاكا حبيب إلى بيت بسيط، وجدنا الملا وكثير من الناس في الصالة قدمنا له التهاني، قال كاكا حبيب اتبعوني إلى السفرة، فلقد هيأنا لكم مائدة طعام لابد أن الأطفال يحسون بالجوع والتعب.

بعد الغذاء قررنا الجلوس على التلة الخضراء، الشاي يقدم للجميع من السماورات الكثيرة المنتشرة على رابية سندسية، افترشنا الأرض الممدودة عليها البسط والسجاد واتكأنا على الوسائد المريحة وجلسنا كلنا قرب المواقد، نلتمس الدفء منتشين برائحة الشاي والقهوة وعبق جبال كردستان النقية.

أحاديث كاكا حبيب ما زالت مرحة وطرفه ما زالت ذكية لماحة، أخذنا نستعيد أيام الزمالة والعمل المشترك والمقالب والأحداث التي مرت بنا، ضحكة كاكا حبيب لم تزل كما هي، استعرضنا أسماء الزملاء والزميلات وتذكرنا تعليقات

الكاكا حبيب التي يحفظها الجميع ومحور تعليقات كاكا حبيب على خُطب الزعيم وتحويره إياها نتيجة الإحباط لسماع الكثير، وقلة الإنجازات لآمال وأمنيات لم تتحقق بسرعة يطمح لها الشباب عادة ويستبق الأيام لتنفيذها.

كان المجتمع يحاول أن يجير كل شيء للزعيم، يدفعه عربونا وتقدمة له، فكان المعلم الأول والجندي الأول وكل ما قد يعزه الناس كان يجب أن يعود بشكل وآخر للزعيم. فالشوارع للزعيم، والمتنزهات والمدارس والخ، ويوماً كنا نحاول دخول مقر عملنا، ومرت بالقرب منا امرأة تنهر ابنتها الصغيرة وتحاول ضربها صارخة بها أنت زمالة ولج أنت زمالة، فرد عليها الكاكا حبيب بشدة لا تضربيها هاي زمالة الزعيم، أصبحت هذه النكتة محور أحاديثنا والمعبر الصريح عن خيباتنا.

شعرنا كلنا مجموعتنا المتآلفة هذه بأن هذا الظرف قد يفتح للمستقبل نافذة صغيرة مضيئة، وفي الخلفية إذ تعالى صوت غناء جزراوي وأحمد الخليل، اقتنعنا بأن الثلوج قد ذابت وبسيولها محت الغضاضات وقربت الجميع بعضهم من بعض ناسين الخلافات والأوجاع والتجارب المريرة.

ربيع كردستان لم ينبثق إلا عن بعض براعم صغيرة ناعمة لسوسنات وبابونجات كانت غافية وانبثقت تتحدى برودة آذار وتستبق دفء نيسان. الأحاديث طالت وتشعبت والضحكات تجلجلت والأطفال يمرحون ويصخبون ويحاولون تلقف المزيد من المفردات والتنعم بالمن والسلوى والمعجنات.

سمعنا صوت طائرة هلكوبتر عن بعد يبدو أنها متوجهة صوبنا ظهر نوع من الاهتمام الحذر على وجوه الرجال ولكن الكاكا حبيب قال:

- لا تقلقوا هذه طائر السيد النائب صدام حسين فنحن نتوقع قدومه.

وجمنا وسكتنا وخالجنا شعور بالانقباض، وبدون أن نجد الوقت لاتخاذ أي مبادرة حطت الطائرة، هرع الكاكا حبيب والمرافقون لاستقبال صدام حسين. لفتنا كآبة هذه المفاجأة غير المتوقعة وألجمتنا صمتا رهيبا، ولم نعرف كيف نتصرف لتفادي صدام حسين، اقترب الكاكا حبيب منا مسرعا، وقال: أعتقد بأنكم ترغبون بإلقاء السلام وبالحديث مع صدام إلا أنّ زكية بسرعة بديهتها ولخبرتها الطويلة في العمل السياسي قالت لا أعتقد من الأصول أن نلتقيه الآن أولا لنأخذ الأطفال ونذهب إلى غرفنا في المقر لتغير ملابسهم ثم نلتقيه بعد أن يرتاح من

السفر، وافق الكاكا حبيب بسرعة ويبدو أن خبرته السياسية العميقة جعلته يفهم ما عنته زكية.

اقترحت زكية أن ندخل الأطفال للحمام ثم نحاول أن نأخذهم لغرفة النوم لتطول فترة بقائنا في المقر، لربما تفسح لنا إطالة الوقت تلك تجنب لقاء صدام حسين، وفعلا نجحت الخطة، فلقد استغرق إقناع عشرة أطفال من خلفيات وأعمار مختلفة، بالاستحمام والنوم وقتا طويلا، وما أن خلدوا للنوم حتى سمعنا صوت الهلكوبتر محلقة فتنفسنا الصعداء وعدنا محاولين خلق أجواء طبيعية مرة أخرى، إلا أنّ تلك السحابة السوداء بقيت تعلو سماءنا وتكدر صفونا.

بهذه المبادرة الذكية من زكية تجنبنا أن نلتقى الرجل الذي نعتبره عدونا منذ اليوم الذي شارك ولو بدور ثانوي في المحاولة اللئيمة لاغتيال الزعيم، شكر الجميع زكية لسرعة التصرف الحكيم الذي أزاح عنا كابوساً لم نتوقع أن يكون مريعا إلى هذا الحد ويفسد علينا بهجة التنعم بأجواء كلالة الاحتفالية.

موسكو (الستينيات)

يوم شتائي قاس آخر، أنظر عبر النافذة لا أستطيع أن أميز أي شيء زجاج النافذة مغطى بالصقيع من الخارج

ورطوبة وضباب من الداخل كتبت على زجاج النافذة (بغـداد وعنب ديس العنز بيروت وسوق سرسق لندن ومسرح الأولـد فيك). ضحكت من نفسي فأنا أشتاق لعنب بغداد في هذا الجـو المثلج الكئيب ولسوق سرسق في بيروت، وللأولد فك، تناولت كتاب لأدجار الآن بو من المكتبة المجاورة لسريري واستلقيت على فراشي وأنا مصممة على البقاء مسترخية خـلال عطلـة نهاية الأسبوع هذه، لدي ما يكفيني من الخبز الذي أخذته مساء أمس والذي يوزع مجاناً في المطعم الطلابي، على حافة نافذتي التي تقوم مقام الثلاجة، فص من الجبن وبعض الزبدة، زوادات تفي بالغرض لحين موعد فتح مطعم الطلبة بعد الظهر حيـث سأحصل على وجبة لذيذة ساخنة.

سرحت مع أفكار أدجار الآن بو وسوداوية قـصـة سَرْدُ بو The Fall of the house of Ashar للقصة ممتـع رغم أحداثها، تصورت القصر، وشخصية مـادلين، تـراءت أمامي بحيرة تارن استمتعت بالقصة إلى ابعد حد واندمجت مع أحداثها. ولتلطيف وقع أحـداث القـصة وضـعت أسـطوانة شهرزاد لكورساكوف وانغمرت بجو قدسي سماوي يطوف بي بين عالم شهرزاد وموت العذارى وبين مادلين أشـر الميتـة الحية.

اليوم السبت وأريد أن أتنعم بالقراءة وسماع الموسيقى، غدا موعد تلفوني الشهري مع أمي ويجب عليَّ النهوض باكرا لأحدثها من دائرة البريد هيأت قائمة بمتطلباتي منهـا أغلبهـا كتب من بيروت وتمددت على فراشي الـدافئ وأنـا منتـشية بالموسيقى والقصة وأتطلع لمكالمة الغد.

توالت طَرقات على باب غرفتي بضجر وضيق ارتفع صوتي بالروسية قائلة: من؟ سمعت صوت ماجدة تقول جئـت لزيارتك أتقبلين الضيوف، فتحت لهـا البـاب ورحبـت بهـا واعتذرت لأنني ما زلت بملابس النـوم، اسـتدرت وأوقفـت الحاكي وأسكتُ صوت كورساكوف العـذب الحـالم وتركـت بحسرة أدجار الآن بو يستلقي على فراشي مهجورا.

شعرت أن ماجدة تريد أن تقول شيئا ما، إذ كانت تلف وتدور وتؤكد بأن الحزب يعتز بي ويعتبرني صديقة، ويريدون مني أن أبذل جهدا أكبر لأترشح لنيل شرف العضوية، قلت لها لست على استعجال دعي الأمور تنضج أكثر، ولكنها لم تقتنع بحجتي وأكدت عليَّ أن الجميع يقدرون اهتمامـاتي الثقافيـة وحرصي على دراستي، قلت لها ولكن.. قالت: ولكن من ناحية الانضباط أنت غير ملتزمة مثلما نتمنى، فلقد رفضت الـذهاب لزيارة ضريح لينين وترفضين الانخراط في الأعمال التطوعية

في العطلة الصيفية، هذا ما يسبب الحساسية تجاهك ويثير التساؤلات، قلت وسأظل أرفض، بالنسبة لي فكرة عدم الزيارة هي مبدأ لن أتزحزح عنه أبدا لن أذهب لرؤية إنسان محنط إلا إذا كان مومياء في متحف. ضعوا الرجل في متحف وحنطوه تحنيط المومياءات سأذهب لأراه.

تضايقت ماجدة من كلامي وقالت:

- هناك مسألة أخرى العلاقات التي تربطك بكثير ممن هم من خارج وسطنا الطلابي المتعارف عليه، فأنت تعملين وهذا شيء غريب جدا، ولا واحدة منا فكرت بأنها تحتاج للعمل، وتأخرك في العودة ليلا إلى الجامعة يثير الكثير من التساؤلات، ونحن نراعي محيطنا الاجتماعي الذي نحترم تقاليده.

قلت لها:

- فعلاً أولا أنا مواطنة أممية لا أعرف ماذا تقصدين بوسطكم الطلابي، فأنا مثال للأممية المتعددة أليس الأممية هذا ما تنادون به؟ أن كنتن كسولات تستثقلن العمل فهذا عيب فيكن أنتن، أما نقطة احترام التقاليد فهي مهمة جدا إذ تنطبق على الزملاء الذين يحتضنون الشقراوات ويدفعونهن ليستندن بظهورهن على الأعمدة المرمرية وأجسامهن مستقيمة تماما بمواجهتهم وملتصقات بهم لتسهل عملية إشباع الرغبة الجنسية هذا ما يحدث كل ليلة في مدخل الجامعة هل راعى هؤلاء التقاليد؟

قالت:

- يجب علينا تجنب الحضور متأخرات لتحاشي هذه المناظر.

قلت:

- يا لغبائك يا ماجدة وغباء من دفعك لزيارتي إذاً نحن المخطئات ونحمل وزر سوء تصرفهم لأننا نراهم عند عودتنا في وقت متأخر، ونحاسب لأننا نعمل عملاً مجدياً ولتأخرنا في العودة بدون معرفة الأسباب في بلد الحرية مشاعة فيه، ثم إذا كنت أريد أن أسيء التصرف أليس من الممكن أن يحدث هذا في النهار وليس ليلا مثلا وأصل الجامعة قبل الظلام؟ أنت تعلمين أنني أعمل مترجمة فأنا أجيد أربع لغات أوروبية، من مثلي عملة نادرة وعملي رسمي ودراستي ليست بالهينة أرجو التوقف عن الإهانات لبنات جنسك، وأرجو أن تفهمي من لا يريد أن يفهم أنا لن أخضع لابتزازهم السياسي أو الاجتماعي أو أي ابتزاز آخر، وسمعتي تعود لي أنا من أقرر أن كانت ستمس أم لا ؟ ومن قبل مَنْ؟ من قبل حثالات لا يفعلون ولا يطبقون ما يوعظون.

بغداد (الخمسينيات)

سمعت طرقا على باب القسم الداخلي وصوت آمال تصرخ تناديني، خرجت مسرعة لأرد عليها ولأوقف صراخها العالي، قلت:

- ماذا تريدين.

قالت:

- تعالي معي للبيت فأنا ضجرة، الكل نيام، تعالي نجلس في الحديقة.

قلت: لها:

- هل آبيه في البيت.

قالت:

- نعم في البيت ولماذا؟

قلت:

- أريد أن أتحدث معه.

جلسنا في الحديقة تحت شجرة النبق العالية وبدأنا ثرثرتنا التي لا بداية لها ولا نهاية، سمعت صوت شباك يفتح وأبيه يقول اسكتوا أريد أن أنام.

- اسكتي يا آمال.

- لست أنا التي تتكلم إنما، إنما هي وهي تشير إليّ.

- أشار إليّ أمرا أسكتي إذاً.

- جئت أريد أن أحدثك

- لا وقت لدي أريد أن أنام وبعدها أذهب للعمل.

- وبعد ذلك هل أبقى أنتظرك إلى أن تعود لنتحدث.

- لا بعدها سأذهب لزيارة هشام ووليد مدعو عندهم لسماع أسطوانات موسيقى كلاسيكية.

- خذني معك.

- هذه جلسة رجالية تدخين وشرب وسماع موسيقى.

- أنا أيضا أدخن وأشرب وأسمع موسيقى.

- لا تجادليني اسكتي ودعيني أنام كم أنت لحوحة.

- أريد أن أحدثك

- عن ماذا عن حبيبك؟

- نعم.

- أما زلت تحبينه؟

- نعم.

- ليس لدي وقت.

- خذني معك ونتحدث في الطريق.

- اسكتي مستحيل.

لم أقبل الرفض، بقيت أبحلق في وجهه بإصرار وهو ينظر إليَّ وكل قسمات وجهه ترفض فكرة أن يأخذني معه، يحرك يديه علامة الرفض ويهز رأسه، لم أتمالك سوى أن أخرج له لساني، ضحك مني وأغلق النافذة وهو يقول: أعدك سنتحدث في وقت آخر.

- لم أشعر إلا ويد آمال تضربني على رأسي وتقول: أنت غير مؤدبة احترمي آبيه*لماذا أخرجت له لسانك؟

- لماذا لا يريد أن يحدثني؟

- ماذا سيقول لك روحي تزوجي من رجل سيطلق زوجته ومن غير دينك؟

- ربما سيقول لي ذلك.

- ولو قال هل ستفعلين؟

- نعم لو قال آبيه ذلك سأفعل.

- وماذا عن أهلك؟

- سيقتنعون.

- كيف؟

- ربما ستقنعهم جدتي وآبيه!

- ولماذا تعتقدين أبيه سيوافق على فكرتك؟

- ألم يساعد ويشجع إحدى قريباتكم بالزواج ممن تحب؟

- نعم وبقيت أمها مريضة طريحة الفراش أكثر من سنة لا تخرج من البيت بسبب الفضيحة.

- آبيه لم يهتم وبقى صديقا لها.

- يا حماره هذه مسألة عائلية العائلة يعني شؤون عائلية أنت غريبة مجرد صديقة لن يجازف ويشجعك ويخسر احترام والديك ويتحمل مسؤولية كبيرة.

موسكو (الستينيات)

وضعت كتبي ودفاتري وأقلامي على الطاولة، وذهبت لأبحث عن المصادر والكتب التي ستعينني على دراستي، كان

عليَّ أن أقوم بمقارنة ترجمة فرنسية وأخرى إنجليزية لنص لتشيخوف، الموضع صعب، رغم بساطة ووضوح تشيخوف إلا أنه من السهل الممتنع وأجد أن روح اللغة الفرنسية أقرب له من الإنجليزية، حاولت أن أجد مقارنات بهذا الصدد لأعمال أخرى وبحثي طال وأرهقني كثيرا، أنتبه لوجودي سرغي فجلس بالقرب مني وابتسم لي وهمس:

- متى ستتناولين الغذاء؟

رددت همسا:

- لا أعتقد سأضيع وقتي سأكتفي بالعشاء بعد الانتهاء.

هزّ رأسه وقال:

- يا لجديتك! لم أرد عليه.

عدت إلى رفوف الكتب أكمل بحثي ووجدت كتاباً أثار انتباهي، التقطته وعدت إلى الطاولة وسيرغي ما زال هناك، قال:

- لم لا آخذك لنتعشى سوية في مكان مثير جدا، والأكل رائع والأجواء ساحرة.

استفسرت منه عن هذا المكان فقال:

- على ضفاف النهر في عوامة وفي مطعم للغجر.

قلت له:

- غبية لو أرفض العرض.

قال ضاحكا بخبث وهو يغمز بعينيه:

- أعرف نقاط ضعفك وولعك بالغجر والموسيقى والرقص.

سيرغي يدرس الأدب الروسي ويتحدث بحماس عن النصوص الروسية القديمة التي أجهل كل شيء عنها، وعندما يواصل حديثه ويتشعب أجدني جاهلة تماما وكأنني في متاهة، لا أعرف أي شيء عن هذا الأدب وأحس بالضيق والصغر أريد أن أعرف المزيد، يتحدث عن إرث يمزج الوثنية بالمسيحية وقصص بطولات وتضحيات دينية، ولكن اللغة المكتوبة بها قديمة جدا قبل أن يدخل بطرس الأكبر التعديلات اللغوية وبحماس يحدثني عن قصص أيغور وعن حياة ألكسندر نيفنسكي، يعيرني الكتب لأقرأها ولكن اللغة والأسلوب الذي كتبت به صعبه جدا وتستغرق مني وقتا طويلا لاستيعابها، ولكنني أنتشي عندما أسمعه يروي لي تلك القصص ويشمر بساعديه ويلوح بأصابعه الرشيقة الطويلة ويمد رقبته عاليا، وكأنه ذاك النسر الذي يمجده بوشكن في قصيدته.

وقتي محدد وزمني محصور بين الدراسة والعمل، وما يقع بينهما من ساعات أقضيها مع نوار اغلب الأوقات، إذ إن صحبتها كانت لي كنافذة مفتوحة على عوالم جميلة عنبة، حتى شكواها وأنينها تلبسهما حلة مختلفة بها تدخل الحبور على نفسي الضائعة القلقة المتوترة.

نوار تختلف، لا أعرف لماذا ولا بماذا أشبهها، أنها لا تشبه الآخرين والأخريات، إنها كيان قائم بذاته، مستقل، وحيد، غريب، مفعم بالحرارة والتلقائية والبراءة مع النضج والخبرة، الاندفاع مع التحفظ، الاتزان مع التهور. الصبيانية مع الحكمة، الهدء والصمت مع الصخب والضجيج، الصراحة والوضوح مع الغموض والتكتم، تتحدث بحرية وانطلاق ولا تحاول أن تتصنع أي مظهر أو تدعي أي معرفة بل تترك لطبيعتها أن تنساب بيسر وسهولة وتفصح عن وجدانها بعمق ويسر، لا أدري كيف تجتمع النقائض وكيف تتألف وتتبلور لتصبح نوار.

مرة ناولتني قصاصة من رسالة وصلت توا إليها طوت الصفحة إلى قسمين وقالت لي:

- **أقرئي هذا الجزء.**

كانت رسالة غزل وغرام واضح، قلت لها بدهشة:

- **من هذا المتيم؟ من الذي يتغزل بشعرك وعينيك وضحكتك من هذا؟ إنه واقع في سبع بحور الحب والهوى.**

ضحكت وكعادتها عندما تضحك تدفع برأسها إلى الخلف، وقالت:

- **أنه أبي هذه رسائل والدي إليّ.**

لم أصدق وأعطتني الجزء الأول من الرسالة إذ يقول فيها ابنتي الحبيبة ويتحدث عن الفراق المؤلم وعن أيام طفولتها

وعن اليوم الذي مشت فيه وخطت أول خطوة، واليوم الذي نبت لها فيه أول سن واليوم الذي قصّوا شعرها واحتفاظه بتلك الخصلات، واليوم الذي يتمنى منها أن تتزوج وتنجب له حفيدة مثلها تماما، تعجبت لتعلق الوالد وعمق أحساسه اتجاه ابنته، قالت نوار: أنا أيضا متعلقة به أفتقده فهو والدي وصديقي ومعلمي وناصحي ومرشدي، أتعرفين لماذا يحبني لأنني أذكره بحبه الأول بالحبيبة التي أعطاني اسمها، أعتقد أن أبي يخلط بيني وبينها أحيانا عندما يسترسل على الورق في مناجاته لحبه الأول الذي اخفق. ولكنه والد أتمناه لكل فتاة لا يرفض لي طلباً وتقفني ثقافة لم أكن لأستطيع أن أحصل عليها من المدرسة فقط، أرادني أن أكون مثل نواره التي فقدها ويبدو أنني أصبحت مثلها وتمت قولبتي على شاكلتها، أو ربما وفقا للأديان الآسيوية قد تقمصتني روحها لتبقى قرب حبيبها، وتعالت كركرات نوار جذلة منشرحة طروب.

بغداد (الخمسينيات)

أخي لم يعد، والوقت متأخر، والدتي يأكلها القلق والخوف، قلقها وخوفها تسربا إليَّ وبدون أن أطرح أسئلة وأزيد من توتر الجو. فكرت بأن عليَّ أن أحمي مكتبتنا

المتواضعة من الفيضان أكراما لأخي الذي كان قد جمع أغلب كتبها وأختارها بعناية، صعدت إلى الطابق الأعلى وأخذت أفرغ رفوف وخزانات المكتبة، رصفت الكتب حسبما كان أخي قد نظمها حسب مواضيعها ولغاتها، وبدأت أقلب الكتب الشهية تلك، مواضيع متنوعة لكتاب معروفين معاصرين وأقدمين ودواوين شعر لشعراء كنت أتمنى أن ألتقي بأي واحد منهم.

أمسك الكتاب أي كتاب بيدي وأجعل صفحاته قريبة من صدري ليستكين قرب قلبي، أغلب الأحيان أكون قد حفظت على ظهر قلب جملاً من النص أو أبيات شعر وأرددها والكتاب تحتضنه يداي بقوة وحنين، يدق قلبي بعنف فيرتفع الكتاب ويهبط متناغما مع الخفقات. وشفتاي تردد عباراته، أجد نفسي في حوار جاد أو عاطفي روحاني مع الكاتب أو الشاعر. كم سافرت مسافات بعيدة وتحدثت لغات أجنبية في حواراتي المتخيلة تلك، جلست على العشب، في مقهى أو حانة أناقش النص وأتناجى مع صاحبه أنفعل وأتفاعل، وأعود إلى عالمي وأنسى ما دار من أحاديث أن كانت نجوى أم نقاشاً محضاً.

أحاديثي مع النساء المؤلفات والشاعرات مملوءة بالأسى والعتاب والشكوى وطلب النصح، أشكي لهن حاليَّ وأتعقب كلمات الخيبة والتشجيع في كتاباتهن وأناقش معهن

سبل نجاحاتهن والأسى الذي جابههن، أتخيل أجوبتهن التي أغلبها تكون عبارات أو مقاطع من أشعارهن أو خواطرهن، ولادة بنت المستكفي ومي زيادة كانتا تستحوذان عليَّ بالمرة، أتخيل مي تسير على سفح جبل في لبنان فأسير وإياها حتى نصل الوادي أرافقها وأتحدث إليَّها، أما ولادة فلم أجرؤ يوما أن أسير أو أجلس بجانبها، فلقد كانت دوما الأميرة التي يصعب الوصول إليها، كنت أستمع إليها من خلف شباك أو ربما أكون قد تسلقت جداراً لأسترق السمع وأسرق النظر إليها وابن زيدون يتناجيان وأنا أتلصلص وأحاول التخفي وألبس الصمت وأتشح بالسكون المطلق، أو أكون جارية تقشر لها برتقاله وهي في حالة نجوى تكتب قصائدها وأنا أسترق النظر إلى ما تكتب، وكم مرة كنت رسولتها أحمل رسائل حبها وعشقها إلى ابن زيدون، وأنا أسير على الدروب الأندلسية تلك أختلس النظر وأمتع ناظري بسطور ولادة وأردد أبيات عشقها ودعواتها الصريحة لابن زيدون أو مشاكستها له وإثارة غيرته بابن عبدوس، هذه هي عوالمي، هل سأحرم منها أم أنها ستتجسد وأكون يوما ولادة وأغازل ابن زيدوني علنا.

خفت على الكتب تلك من الغرق كان لابد لي أن أحميها في مكان لن تصل إليه أمواج دجلة الرعناء، صعدت

بالكتب إلى السطح العالي. واخترت مكانا مسقفا وظليلا قرب خزان الماء الكبير، أخذت أكنس وأنظف الأرض المتربة وفرشت حصيرة غطيتها بشرشف نظيف وبدأت بوضع الكتب الكثيرة والثقيلة على الشرشف الأبيض الناصع حماية لها من التراب، جئت ببضع طابوقات ووضعت لوحات من الخشب فوق الطابوقات وأخذت أكرر وأعيد العملية، وبذلك أصبح لدي رفوف كثيرة متواضعة الهيئة ومن خشب مهمل وطابوقات لم تعد تنفع أحد وبدأت بترتيب الكتب على تلك الألواح.

عمل مُضنٍ متعب ولكنه مثير ومشوق جدا، وأنا في عملي أنتشي بفتح صفحة جديدة من كتاب معين أو قراءة جملة من كتاب آخر، ويسير بي الوقت طويلا وأنتبه لموعد نومي، أتسلل بخفة وهدوء إلى غرفتي، وأحلم بيوم غد الذي سأواصل فيه عملي لأنقاذ الكتب وأغرق في نوم عميق.

صحوت صباح اليوم التالي على صوت والدتي المرتفع مصرة على إلا يذهب أخي إلى شواطئ دجلة مع زملائه ليواصل عمله التطوعي بتكديس أكياس الرمل لمنع اجتياح دجلة، ولكنه يتجاهلها يخرج مسرعا بدون أن يلتفت إلى الخلف قائلا اليوم سنكون في البوليسخانة سنعمل هناك،جلست والدتي خائبة وهي تمسح دموعها.

تحلقنا نستمع إلى أخبار الفيضان من الراديو الذي كانت أخباره شحيحة مقتضبة، ولكن الأخبار المتضاربة والكثيرة والمخيفة نسمعها من الأقارب والجارات اللواتي يزرن والدتي ويشاركنها قلقها، إذ أن أولادهن أيضا قد ذهبوا لإنقاذ مناطق بغداد الفقيرة، التلفون لم ينقطع رنينه كل المعارف والأقرباء يوصلون أخبار آخر التطورات عن الفيضان، وكل الاستقراءات تدل على أن الفيضان سيكتسح مناطق عديدة من بغداد، لن يوقف تدفق أمواج دجلة أي عائق محكماً كان أم تراباً، قالوا أن أسواق شارع النهر وشارع الرشيد شبه مغلقة بغداد الجديدة قد غرقت وأكياس الرمل ترتفع على طول ضفاف دجلة، السيارات الكبيرة مليئة بالعمال، أغلبهم من المتطوعين، تنقلهم ما بين ضواحي بغداد، الناس ملهوفة قلقة.

أغلب مناطق بغداد كانت مهددة ولكن الكل يعلم أن الحكومة ستحدث كسرة في سدود المناطق الفقيرة والشعبية ومنها منطقة خلف السدة حيث يعيش آلاف من هؤلاء الفقراء الكادحين الذين أهملتهم الحكومة وتركتهم في العراء يسكنون في أكواخ بائسة لا تزيد عن بارية ملطخة بعدة أكف من الطين كي لا تقتلعها الرياح .

خرجنا مجموعة من الطالبات من مدرستنا متوجهات وجهة معاكسة لبيوتنا، قطعنا شارع أصفر وأبو أقلام وتابعنا

سيرنا، وصلنا شارع العطار، حاولنا الذهاب والتوجه قريبا من النهر منعتنا الشرطة وصرخوا في وجوهنا وطردونا بوقاحة وصلف، لم نفزع قلنا لهم بهدوء أخوتنا وآباؤنا هناك يملؤون أكياس الرمل نريد مساعدتهم استهزؤوا بنا وهددونا. اضطررنا إلى العودة إلى شارع الكرادة الرئيسي، وقررنا مواصلة السير إلى البوليسخانة.

عربات مكدسة بالمواد المنزلية وبالنساء والأطفال تسير مسرعة بالاتجاه المعاكس لسيرنا سيارات الأحمال البيكاب واللوريات تحمل الرمل وأكياس فارغة تواصل السير متجهة نحو البوليسخانة.

طلاب المدراس وحقائبهم المدرسية متدلية على أكتافهم يسرعون الخطى، المحلات التجارية مزدحمة بالزبائن، هلع وأضح وخوف من شحة التموينات الغذائية، نساء بالعباءات المتدلية من رؤوسهن ومسرحة إلى الخلف بلامبالاة أو ملقاة على أكتافهن، ومنها تبدو ملابسهن المشجرة والموردة وأزياقهن مثبتة بدبابيس أبو الرأسين معلق فيها مفاتيح بيوتهن، يصرخن بالبائع لارتفاع الأسعار المفاجئ، أو ينادين أولادهن وبناتهن ليساعدوهن في حمل المشتريات الثقيلة. أسئلة كثيرة

عن الأسعار والشحة وهل سيختفي رز العنبر والـدهن الحـر وماذا عن الطحين؟

أخبار الغرق على كل لسان والمناطق التـي قطعـت وعزلت بالمياه أسماؤها تتردد، وعبارة بغداد إمـا غريـق أو حريق تعاد وتتكرر، وأمنيات بالفرج الـذي لا يبـدو قريبـا، صخب وضجيج ممزوج بالخوف والهلع من دجلة ومن نزواته الهائجة المدمرة، والسماء ملبدة بالغيوم فهذا ربيع بغداد.

موسكو (الستينيات)

حمل سيرغي شنطة كتبي الثقيلة وأمسك بيدي وهـو جذل، توجهنا عبر قطار الأنفاق إلى المطعم الغجـري، علـى ضفة نهر موسكو وقريبا من الجسر ترسو عوامة جميلة بيضاء عليها رسم كبير لطائر النورس وهو اسم المطعـم، شـعرت بالحبور لهذه التسمية التي تنطبق على روحية الغجر الطيـور التي تهوى الماء واليابسة ولا تريد الفراق عن كليهما وتجمـع بين النقيضين، أنها روح الغجري. النافرة الرافضة للاستقرار وقيوده في بيئة واحدة.

دخلنا صالة المطعم شبه الخالية، وجاء رجل يرحب بسرغي أحتضنه وقبله وبقى ممسكا بيده يعاتبه على غيابه وانقاطعه قدمني سيرغي له وقال:

- زميلة لي من عوالم أخرى بعيدة بعيدة جدا أريدها أن تنغمس في عالمنا.

غمز له صاحب المطعم بأنه قد فهم قصده وقال له:

- سنكون في خدمتك لإقناعها بصواب ما تريده لها يا سيرغي العزيز.

اخترنا أفضل مائدة، تطل على النهر والمدينة، التفت حولنا مجموعة من الغجريات المغنيات والراقصات بملابسهن الزاهية ووجوههن المثقلة بمواد التجميل والمبالغ فيها، الكحل الأسود الفاحم لعيون أصلا واسعة براقة سوداء تلمتع بنظرات نافذة عميقة، خدود مرسومة عليها دوائر وردية غامقة صاخبة واضحة الحدود، وصبغة حمراء قانية تلتصق بالشفاه المكتنزة وكأنها جزء منها، ورود ملونه كبيرة وصغيرة تغطي خصلات الشعر الفاحم المنساب الطويل الذي يصل إلى أسفل الخصر، فستان مفتوح الصدر ينفر منه ثديان بارزان يريدان التحرر من القيود وينفجران بالحياة والرغبة، خصر نحيل مشدود بقوة بشال زاهي الألوان محلى بزهور ورسوم بهيجة وبشراشب طويلة تتمايل كيفما أتفق وبدون حرج وبمرح وبانسياب تتحرك

على ورك رجراج ريان متوثب يصرخ مرحبا بالعيون المبحلقة والأصابع العابثة.

جلست الغجريات بالقرب منا وتحدثن مع سرغي حديث الألفة والمودة. وقلن اليوم يوم خاص إذ جاء سيرغي مع صديقة له من أفق بعيد بعيد وسيغني أغنيات مهداة لي، شعرت بالزهو والامتنان، طلب سيرغي قنينة فودكا وأنا طلبت قدحا من النبيذ الجورجي الأحمر نبيذي المفضل، جلسنا نستمتع بالجو الدافئ والألفة والحميمية التي قوبلنا بها وأمواج نهر موسكو الهادئة والبنايات الرمادية الكالحة والتي من بينها تنبثق قباب الكنائس العتيقة تذكرنا بما يدور خارج حدود العوامة. وتبقينا على صلة بواقع آخر وعوالم بعيدة جدا عما نعيشه في هذه اللحظات الوجدانية الحميمية.

بدأ العزف بالة الجيتار المصنوعة من خشب الورد، ألحان تتصاعد وتنخفض تعلو تهبط وكأنها أمواج بحر هائج، ثم تنساب بهدوء وتصل نقطة الصمت، تحاكي رفيف أجنحة النوارس الهادي الواثق، ثم بعنف وقوة وحزم تتعالي مجدداً وتتعانق، يصحبها التصفيق المتناغم من الراقصات مع وقع أقدامهن وكلهن يحاولن جاهدات إلا يكشفن عن سيقانهن بل يتركن أثداءهن تبرز وتتراقص بتحدٍ ونشوة، وتترنم أذرعهن

مع النغمات وبليونة وميوعة فائقة تتحرك أصابعهن الرشـــيقة الطويلة تمسح على رقابهن وصدورهن بحركات مغناج مليئـــة بالدعوة للمتعة والمسرة.

أرتفع صوت المغني يغني أغنية العيون السود، أغنية غجرية تطرب حتى الحجر وتنفخ فيه الحياة، لم يستطع سرغي السيطرة على عواطفه، نهض وأخذ يـــشارك فـــي الـــرقص بخطوات واثقة جميلة متناسقة، يدور ويدور ويثني ركبه ويأخذ جسمه وضعية الجلوس ويدفع بإحدى ساقية في الهواء وتتعقب ساق اليمين ساق اليسار بسرعة، وخصلات شـــعره الأشـــقر الذهبية تتماوج بتناغم مع إيقاعات الموسيقى العاطفية الصاخبة، ثم أرتفع بجسمه المدود الرشيق وقامته الطويلة واقترب منـــي وسحبني من يدي بقوة وعزم مصرا على مشاركته الـــرقص، رغم يومي الطويل المرهق إلا أن الرقص ومشاركة ســـيرغي أعادت لي حيويتي، أنفاسه اختلطت بأنفاسي ونفث فمه زفرات حطت على عنقي وزادت من نبضات وخفقات قلبي شـــعرت بالتحام ثديي بصدره القوي ولم أكن أريد فكاكا.

ملئت مائدتنا بأصناف متنوعة من الأطعمة، رائحة الـــشواء تتبعث مهيجة الشهية،جلسنا نتنعم بها قال سيرجي وهو يقترب بوجهه من وجهي وشفاهه تحاول ملاصقه شفاهي أما زلت تريدين الإرتباط

بذلك الرجل صاحب السيارة البيضاء، ضحكت منه وقلت: من الذي يريد الإرتباط؟ أنا لا أفكر أن أربط مصيري بأي رجل حاليا لا أشعر بأنني أستطيع تحمل مثل هذه المسؤولية، هز سيرغي رأسه بألم وقال:

- عن أي مسؤولية تتحدثين يا حبيبتي؟ لم تعتبرين الارتباط مسؤولية أنه الفرح والانشراح والمتعة يا حبيبتي يا غاليتي دعيني أقدم لك حياتي ونفسي وجسدي وشاركيني فرحي وطموحاتي.

- أنا من بيئة مختلفة يا سرغي، لا تدع الفودكا تسير أحاسيسك، أنا جذوري مزروعة في أرض بعيدة جدا جدا وتسقى بماء قديم قدم الأزلية، ثلوج موسكو ستيبس جذوري وتقتلها. دعنا نعيش ساعات المرح هذه، ونطير مع النوارس المهاجرة فلقد قررت أن افرد جناحي وأتدرب على الطيران منفردة.

- وأنا أيضا أريد أن أطير معك خذيني لأرضك التي تحتضن جذورك قد تنبت لي أوراق خضراء في عز الشتاء.

- بعيد بعيد هناك شمس محرقة مشرقة صيفا وشتاء لا تختبئ ولا تخجل لتتوارى خلف الغيوم ستلفح وجهك وتحوله إلى لون آخر غير لونك، حينها لن تتعرف على نفسك ستصبح أنسانا آخر وعندها قد ابحث عنك ولا أجدك.

- صمت سرغي وأحنى رأسه وهمهم قائلا بأسلوب شعري: ترفضينني.

اختلست قبلة من شفاهه الرطبة وبسرعة أدرت وجهي منعا له من التمادي في قبلة مقصودة غير مختلسة.

بعد خروج الزعيم من مستشفى العلوية وشفائه التام بعد محاولة الاغتيال اللئيمة، تجمعنا في اتحاد الأدباء، ذهبت مع سهام إذ أن الجواهري سيلقى قصيدة وحشد كثير من الشعراء وعبد الرزاق كذلك، حذرتني سهام من البكاء قالت لا تحرجي عبد الرزاق سيطري على دموعك، يا له من طلب صعب يا سهام، دموعي وأنا أستمع إليه هي الرسالة التي كنت أوصلها له عن استجابتي لحبه، فكيف لي أن أكف عن هذا التواصل، والآن لم يعد هناك ما يربطنا سوى الشعر والدموع.

جلسنا في الصف الأول، أمسكت سهام بيدي وقالت تمالكي دموعك وضغطت على يدي. اعتلى عبد الرزاق منصة وبدأ بإلقاء قصيدته، خلالها جاهد إلا ينظر إليّ إلا خلسة حبست دموعي قدر الإمكان، إلا أن دمعة أو اثنتان زاغتا وتدحرجتا على وجنتي تجاهلتهما تماما، لم أنشفهما تركت ذلك لحرارة الجو ولدفْ صوت عبد الرزاق.

بعد انتهاء الأحاديث ورفضي أن يوصلني عبد الرزاق إلى القسم الداخلي، قال لي آبيه لدي بعض الوقت الآن أن كنت تريدين أن تحدثيني، تعالي معي لأوصلك للقسم الداخلي قلت له

بل أفضل الذهاب إلى البيت فأن والديَّ في بغداد لفترة قصيرة وأريد أن أكون معهما هذه الأيام.

في الطريق ونحن في سيارته البيجو قلت له: أريد أن أحدثك عن عبد الرزاق بقى ساكنا صامتا ينقر بأصابعه على مقود السيارة وقال:

- كم عمرك بالضبط؟

- سأبلغ التاسعة عشر قريبا.

- كم كان عمر أمك عندما تزوجت

- خمسة عشرة سنة.

- وفي أي سنة تزوجت1930 ؟

– نحن في أي سنة الآن يا صغيرتي، نحن الآن في زمان ومكان آخر، بغداد الآن ليست بغداد سنة 30، قبل تسع وعشرين سنة كانت الفتاة تتزوج وهي في السادسة عشر من العمر، والآن إلا تجدين أنه من المبكر أن تتزوج الفتاة وهي لم تبلغ الثامنة عشر، إلا تريدين أن تواصلي تعليمك، أنت موهوبة وذكية، ماذا عن السفر وقضاء ساعات في المتاحف ومسارح الأوبرا والباليه، ماذا عن أوربا والتي هي في متناول يدك لإشباع هوسك بشكسبير ومسرحياته وحبك لوليم بليك المجنون وأشعاره ولوحاته وأعمال آلاف الفنانين وزيارة متاحف ومعارض لا حصر لها؟ ماذا عن اللوفر وأوبرا باريس

ومسرح الكلوب ولندن والسير في الدروب التي سار عليها نجومك وكتابك الذين تتحدثين عنهم بلا انقطاع ماذا عن المكتبات والكتب التي تتمنين قراءتها حال صدورها وبلغاتها الأصلية؟ إلا تريدين أن تشاهدي كل تلك الأماكن وتبقين أياما تتأملينها؟ لم لا تفردين جناحيك وتطيرين محلقة في أجواء جديدة غريبة وتمرين بتجارب قد تساعدك على معرفة عوالم أخرى، تجارب قد تكون مثيرة، فاشلة أو ناجحة هذا لأيهم، ولكنك ستكتسبين خبرات مهمة،هل العمل كمعلمة والارتباط وإنجاب الأطفال هو هاجسك الوحيد.

بقيت ساكتة واجمة، فاجأني كلام أبيه وحيرتني أسئلته، لم أعرف كيف أرد لأنني لم أفكر بكل ما قاله.

- هل تعرفين أنني قد درست الطب لفترة ما ثم تحولت إلى التجارة؟

- نعم أعرف ذلك.

- هناك شيء اسمه الحب يبقى مع الإنسان دائما، ولكن هناك شيء آخر يسير معه محاذيا له لفترة معينة ويتوقف، اسمه الهرمونات تمتعي بالحب وسيطري على الهرمونات.

شعرت بصغر سني وكبر تجربتة وحكمته، قلت:

- بماذا تنصحني؟

- لا أنصحك بأي شيء الأجدر أن أنصح نفسي فلقد تعديت الثلاثين ولحد الآن لم استقر عاطفيا، أني أعرض عليك خيارات

مختلفة قد تروق لك أو لا، أنت التي تنصح نفسها فلا أحد يعرفك مثلما تعرفين نفسك، القرار لك أنت.

بقيت ساكنة لم أقل له ما دار بين ليلى وأخيها، وهذا ما كنت قد نويته أصلا، إذ أن أسئلته قد فتحت ذهني عن صور لم أفكر فيها ووجدت أن من الأنسب لي أن أهضم ما قاله لي، سأعطي نفسي أجازة بعدم التفكير لعدة أيام فما حدث قد قلب موازيني أيضا وألقى بظلال الشك على قراراتي، أحس أن الضبابية وعدم الوضح قد سيطرا عليَّ أريد أن أرى شمسا مشرقة تأخذ بيدي عبر هذه الدروب المعتمة.

بغداد (الستينيات)

جلسنا في مطعم عمو إلياس حيث مقاعد الجلد الحمراء، واخترنا مكانا قرب النافذة الكبيرة لنطل على شارع الرشيد المزدحم بالمارة، باعة الصحف ينادون على بضاعتهم، وفي إحدى الزوايا بائع فستق العبيد ينتظر الزبائن، بمروحة يد عتيقة متهرئة يحاول إبقاء الجمرات متقدة، في حين بائع السميط أطل برأسه من باب المطعم عارضا على زبائن المطعم بضاعته.

بدت ليلى جميلة جدا بصغر حجمها ونعومة تقاطيعها وشعرها الطويل المنسدل على جانبي وجهها الطفولي، إلا أن مسحة من الحزن كانت تحوم حول محياها، جاء النادل وطلبت ليلى نصف صحن بتيته جاب، وطلبت أنا نصف صحن كباب وكثير من الطرشي والسلطة.

بدت ليلى قلقة متوترة بعض الشيء، سألتها كيف تسير دراستها أجابت جيد جدا لا معوقات أبدا بقيت ليلى ساهمة تأكل بغير شهية، تقطع البتيتة جاب إلى قطع صغيرة جدا وكأنها تتسلى بتفريقها ودفعها بعيدا الواحدة عن الأخرى وبالكاد تمد يدها بلقيمات الطعام إلى فمها.

بقيت أراقبها بصمت لم أرد أن أسالها كنت أعرف أن صمتي وسكوتي سيدفعها للافصاح عما يشغلها ويقلقها، قالت:

- جلسة مطعم عمو إلياس أجمل من الجلوس في مطاعم أبو النواس.

سألتها:

- ومتى أصبحت برجوازية لتجلسين في أبي النواس.

- الخميس الماضي أخذني عبد الرزاق هناك وكنت فرحة بدعوته غير المتوقعة.

- خرجت مع عبد الرزاق وأخذك إلى أبو النواس لابد أنك تمزحين أرجو ألا تقولي إنكما تعشيتما المسكوف هناك لأن هذا سيكون فوق تصوري.

ضحكت ليلى بصعوبة من تعليقاتي الجارحة وقالت:

- نعم هو لا يفعلها ولكن هذه المرة كانت لديه أسبابه.

- يبدو الأمر مثيرا لديه أسباب ليأخذك إلى أبو النواس أرجـــو أن تكوني قد تمتعت على أي حال.

بصعوبة تماسكت ليلى وقالت:

كل ما يقولونه عن الحق في الحياة والاختيار وحقوق المرأة كـــذب وادعاء، كل ما يقولونه عن الأفكار التقدمية التي تدعي أن البشر سواسية محض اختلاق وكذب، أفهمني عبد الرزاق أن لا حق لي في اختيار شريك حياتي إلا بموافقته ويجب أن تنطبق عليه كل المعايير التي يجعلونا نعتقد بأنها رجعية وباليه وأن العلاقات الاجتماعية التي يصفونها بالباليه يجب أن تحترم وتسود وإلا فالويل لي، وأنني سليلة ارث دام آلاف السنين، عليَّ المحافظة على هذه العهدة العظيمـــة وعلى استمراريتها حتى لو استدعى ذلـــك أن أضـــحى بحيـــاتي.

صمتت قليلاً وهي تنظر في الفراغ ثم أكملت قائلة:

- لا يوجد حق اختيار شريك الحياة كيفما اتفق، أو وفقا لهوى أو اندفاعات عاطفية أو لتوافق في الشخصية والميول هذا كلام فارغ، هناك شروط وأهمها ما يسمونه أفيون الشعوب هذا الذي يدعونه بالأفيون هو المعيار الذي يقاس به إنْ كان الرجل مناســـبا لي أم لا ولا يوجد معيار أهم منه، ثم بعد ذلك تأتي الناحية المادية يجب أن يكون متمكناً ماديا وليس طالباً سيتخرج معي لنبني حياتنا ســـوية بحب وتفاهم، هذه كلها أوهام، الدين والفلوس هي المعيار الحقيقي

الصحيح لا شيء غيرهما، هما العماد لبناء حياتي المستقبلية ولا أستطيع أن أتخطاهما أبدا، يجب أن يكون تطلعي نحو رجل من ديني وغني لا غير، الانسجام والحب والتفاهم كلها تأتي بعد الزواج، يجب أن نحسب حساب التقاليد والعادات الاجتماعية التي توارثناها جيل عن جيل ولا يجوز التفريط بها مطلقا.

هذا ما قاله لي وأكد لي أنني لن أتخطى هذه الحدود ولن يسمح لي بذلك أبدا، وسيعمل كل ما بجهده لإبقائي مقيدة بهذه المقومات، والتي كما وصفها عماد بقائنا واستقرارنا وديمومتنا لولا تمسكنا بديننا وبغنانا لم استطعنا البقاء، حاولت مجادلته من منطلق الفكر الاشتراكي الماركسي الذي لقّنونا إياه، غضب وثار وقال هذا مجرد كلام، في الوقت الحاضر لا مناص أمامنا من الالتزام بكل المقومات التي ارتكزت عليها حياتنا، قلت له أنتم تكذبون علينا إذاً، نظريا تمنحونا التحرر وعمليا الخداع، أنتم تخدعوننا. فقد أعصابه وثار وأخذ يهدد ويتوعد وذكرني بنفوذه، وأنه مستعد لأن يرسل الرجل الذي اخترته إلى أبعد سجن في البلد ويدمر مستقبله ولن أستطع أن أراه طوال حياتي وسيكون تعييني بعد التخرج في قرية نائية جدا.

هزتني كلمات ليلى، سقطت الشوكة من يدي وبصعوبة بلعت اللقمة التي ألوكها، بقيت مهزوزة مشتتة لا أعرف ماذا أقول غصت الكلمات في فمي وشعرت بالاختناق كان الهواء قد تسرب من مساماتي ونشف ريقي، زاغت عيني عن وجه ليلى

واخترقت نظراتي نافذة المطعم الواسعة، واتجهت حدقتي صوب بائع فستق العبيد رأيت الدخان يتصاعد من مدخنة شوايته الصغيرة، ويغطي الركن الذي احتله، أخذت دوائر الدخان تخفي الرجل وبضاعته بعتمتها تدريجيا، تبتلع المارة على رصيف شارع الرشيد، وأنا مشدوهة مصعوقة أراقب هذا المنظر وقد تشظت أفكاري وتيبست أحاسيسي، ضاعت مني الحروف وهرب بعيدا صوتي، كان كل همي أن أصرخ لأنبه الناس ليتجنبوا دوائر الدخان الكثيفة السوداء المتصاعدة التي غطت الرصيف والمارة، وباتت تقترب منا وشعرت بها وكأنها ستغطي المطعم كله بسوادها، ولكن صوتي المحبوس خذلني، ولم أشعر إلا ويد ليلى تربت على كفي الثقيلة الجامدة الممددة على المائدة وتقول:

- أتسمعين ما أقوله؟ أسمعت؟

بقيت عيوني شاخصة في زاوية الشارع استدرت لأواجه ليلى لهنيهة، أدرت رأسي لأجد أن بائع فستق العبيد كان قد رحل ولا أثر له أو لأي دخان، إلا أن صدري ضاق وكأنني قد تنفست وابتلعت كل ذلك الدخان، أحنيت رأسي بذل وأومأت لها بنعم ولم أنطق.

اتكأت على ساعد الكرسي المريح في مطعم عمو إلياس وبقيت واجمة لم أعد أريد للكلمات أن تتشكل، فلقد تكسرت الحروف وفقدت الجمل معانيها، وأصبح من العسير علي أن أخرج من حالة الاستلاب تلك، شعرت بصغري وتفاهتي وحماقتي وبلاهتي، تمنيت لو اختفيت مع الدخان المتصاعد من شواية فستق العبيد وشعرت أنني لا شيء حتى ولا سحابة دخان، ضاع مني زهوي وتبدى كبريائي.

صمت مطبق مخيف هدوء رهيب، حلْق يابس ولسان قد ثقل، اختلطت الحروف وفقدت نغماتها وعصى علي تميز أصواتها للنطق بها، لم أستطع أن أصوغ منها جملة واحدة، لم أعد أرى أمامي سوى صدى صوت ليلى وقد تجسد في أشكال خرافية رهيبة لم أعِ ماهيتها،تضخم صدى صوتها واتخذ هيئات غريبة مرعبة تتزاحم تتدافع لتغلق علي منافذ الروح والفكر.

موسكو (الستينيات)

أجواء موسكو الثقافية والفنية بهرتني، المكتبات والمتاحف والمسارح والعمق الأدبي استولى علي تماما أقلب كتب تولستوي ومكسيم غوركي وأتطلع إلى الإيقونات واللوحات التي لم أكن احلم يوما ما أن أشاهدها، وجدتني أقف

ساعات أتطلع بها وأتأملها، البنايات وطرازها المتميز والتي حافظت على روحية القرون الماضية والتراث العميق كانت تقودني إلى عوالم وجدانية أحس فيها بعظمة الإنسان السوفيتي الذي يهتم بتراثه وماضيه.

مبعث البهجة والفرح لي كانت شوارع موسكو الواسعة النظيفة والمرتبة وشبه الخالية من زحمة المرور والفوضى بكل أبعادهما واللذان يغزوان مدني الثلاث بغداد ولندن وبيروت، مدني هذه تعمها فوضى وصخب الناس والأضواء والألوان والأصوات و تصاميم العمارات والبنايات ولوحات الإعلانات، أن كانت مضيئة بألوان متنافرة أم مكتوبة بخطوط وكلمات كبيرة قلقة غير مرتبة.

في موسكو الجديد يمتزج بالقديم ويتناغم معه بسمو ورفعة وانسجام ويمنح المشاهد رهبة ويفرض عليه أن يعود ليستذكر الماضي الحضاري لشعب كافح وما زال يقدم ثقافة وأدباً وفناً متميزاً.

ولعي بالمسرح ازداد ولم يكن من الصعوبة أن أحضر المسرحيات التي كنت أحلم بأن أشاهدها تمثل أمامي، ذهابي للمسرح كان منتظما مرة واحدة بالأسبوع، ولكثرة المسارح كان الاختيار صعبا جدا، اللغة لم تكن سهلة ولكن معرفتي

بنصوص المسرحيات مسبقا ساعدني على تتبع الحوار، التمثيل والأداء والإخراج والديكور كنت أشاهدها وفمي مفتوح من الدهشة والإعجاب.

النشاطات الجماهيرية والتجمعات في الحدائق العامة وعزف الموسيقى ومشاهدة الأفلام السينمائية المتميزة كلها أنستني خيباتي وإخفاقاتي . الحياة هنا مفعمة بالديناميكية والتواصل والعمل والنشاط الرجال والنساء في تكافؤ عملا وثقافة.

انتظمت في معهد دراسة اللغة الروسية في منطقة جريومشكي حيث يدرس كل الطلاب الأجانب اللغة الروسية قبل قبولهم في الكليات التي سيدرسون فيها اختصاصاتهم، كنا كلنا المجموعة التي كانت نشطة في بغداد وأعضاء اتحاد الطلبة وأعضاء الحزب الذي من المفروض أن يكون انتماؤهم وعملهم سرياً إلا أنهم يفضحون أنفسهم بكل رعونة ولامبالاة وبتباه ممجوج أغلب الأحيان.

أشعر بكثير من السعادة والفرح وأنا أتقدم في دراستي وأجد نفسي مميزة لكثير من الأسباب ربما لتمكني من عدة لغات أوربية جعل من الأستاذة التي تدرسنا تهتم بي أكثر لأنها كانت ترغب بتعلم الإنجليزية واللغة الفرنسية التي كانت لغة

الصالونات الراقية في ماضي تاريخ روسيا، مُدرستنا سيدة رائعة أنيقة رقيقة تخفي مشاعرها ولا تبوح بأي انفعال وتتجنب أسئلتنا المندفعة والتي محورها الإعجاب بالاتحاد السوفيتي الذي بنيت أمجاده في أحلامنا وعلى ما قد قيل لنا وعلى قناعتنا بأن العالم الغربي الرأسمالي مبني على الاستغلال و نهب ثروات الشعوب.

سكنت في مبنى الجامعة الذي يقع في منطقة لنينسكي كاراخ وهي منطقة جميلة جدا تطل على وادٍ جميل ونهر موسكو وفي نهاية الشارع كنيسة صغيرة .

الحياة في القسم الداخلي مسلية جدا، كنّا نتزاور باستمرار فيما بيننا وخاصة في السنة الأولى التحضيرية، ولكن بعد توزيعنا على كلياتنا أخذت أوقاتنا تمتلئ بالساعات الدراسية الطويلة والمسافات التي نقطعها للوصول إلى كلياتنا.

بغداد (الستينيات)

في منطقة وقوف الحافلة وجدت عبد الرزاق يقود سيارته الجديدة مزهوا بها، غص قلبي بين ضلوعي، فتح لي الباب جلست بقربه مد يده محتضنا كتفي بقيت ساكنة، قال:

- جميل فستانك....

صمت..... صمتي كانت نتيجة خيبتي.... لم يعنِ ساعده الملتف حول كتفي أي شيء، ولا يده التي حاولت فك خصلات شعري ونثره، شعر بأنني لا أرد على التفاف يده حول كتفي لم يتلقَّ أي أشارة من جسدي بتقبل احتضانه لي وحتى خصلات شعري قاومته وبقيت مربوطة بقوة بزهور الحرير البيضاء، سألني عن العذر الذي اختلقته لأمي بالخروج، قلت: لم أختلق عذرا بل قلت لها صباحا قبل سفرها إلى بيروت أنك تنتظرني وسألقاك، فوجئ بردي.

وصلنا بيته أوقف السيارة بعيدا عن مدخل الدار هززت رأسي استخفافا، قال: ماذا تريدينني أن أفعل يجب أخذ الحذر، لم أرد، دخلنا المدخل الكبير حيث قطعة تعلن اسم وعمل زوجته المسائي، فتح باب المدخل الرئيسي مسحت عيناي المكان بشكل جيد، وجدت الاستقرار في كل مكان وركن، في الكراسي الحديدية المتنوعة والمتنافرة الأشكال والألوان والأحجام والمعدة للاستقبال، في الستائر الرخيصة الثمن والسوقية الذوق، في أرضية الغرفة المبلطة بالكاشي الأصفر الرديء والشائع الاستعمال، وفي ساعة الحائط ذات البندول وتكتكاتها الرتيبة، وفي خرابيش على الأبواب

المصبوغة باللون الأبيض والذي لـم يبـال أحـد بمـسحها وتنظيفها، وفي صور كأنها وسائل إيضاح في فصل مدرسـي ريفي، أغلبها قد علق في أعلى الجدران بإهمال وعدم تنـسيق وغير مؤطرة بل مثقوبة من الأعلى ومعلقة بخيط ومائلة يمينا أو يسارا.

أطرقت برأسي وقلت له:

- أمي تريد أن تطلق اسما جديدا على أختي الصغيرة ولقد أقنعتـها بأن نطلق اسم زوجتك عليها.

نظر إليَّ مرعوبا وقال:

- لماذا اسم زوجتي هل شحت الأسماء لـديك، ألم تتفتـق مخيلتك عن اسم آخر؟ أنا لا أطيق سماع اسمهـا فكيـف ستكون حياتي معك؟ إنك تريدين معاقبتي

- بل معاقبتي، لا حياة لك معي، أنا خائنة، أنا أخون امرأة، أرجوك خذني إلى البيت أريد أن أعود.

- وأنا ماذا عني؟

- لا أدري

- كيف لا تدرين؟

- قدمت طلبا للحصول على بعثة للدراسـة في الخـارج وعلـى الأغلب سأحصل عليها.

- هكذا إذاً!

- نعم نحن نتبع المثل الذي يقول الهوية نصين المرجلة أنا لا أحيا بالتمني بل بالمثابرة وأؤمن بحكمة أمثال بلدي.

بغداد (الخمسينيات)

كان عملا مجهدا شاقا، الجو يميل إلى الحرارة فنحن في أواخر نيسان والكل منهمك بالاستعداد للمهرجان، لم يبق شخص وأحد لم يشارك بجهده العضلي والفكري والفني، تقدم أحد الطلبة بتصميم جميل لبوستر المهرجان وأنهمك الجميع بالإعداد لنشاطات متنوعة وجديدة نعرض إنجازات الطلبة العلمية والأدبية من مختلف الأقسام، بالإضافة إلى تقديم المواهب الموسيقية والخطابية والتمثيلية. كانت التدريبات تستمر ليل نهار، علقنا صورا ونشرنا لافتات وزوقنا الممرات بالورد والأضواء رسمنا على الجدران الخارجية والداخلية، صورا وكتبنا جملا وأقوالاً وأبياتاً من الشعر تمجد قانون الأحوال الشخصية. كان قمة فخرنا وزهونا، وكان مدار حديثنا فهذه العلامة المضيئة في سبيلنا ستكون منارنا أبدا و بإصدار هذا القانون عادت للمرأة مكانتها الحقيقية.

كان خلدون يرتدي فانيلة وبنطلون عتيق وبيده مجرفة يهيل أكوام التراب ويسويها أرضا، هذه الأرض الخالية اليباب

كانت موقعا لتراكم النفايات والقاذورات، كان خلدون يعمل كأي عامل اعتيادي وليس كإداري، ينظف بهمة وجدية تلك الأرض الخربة من الأنقاض وتراكم الأوساخ، نظر حسين إلى طويلا وفهمت قصده. أنهينا العمل الذي كنا نقوم به بسرعة، سحبنا كلانا مجرفة وأخذنا نشاركه العمل إذ شعر كلانا بعمق المسؤولية وأهمية أن يشاركنا خلدون العمل الاعتيادي اليدوي.

بقينا ثلاثتنا نعمل بجد نكد ونجهد لننهي تنظيف الأرض، ثم كان علينا أن نغرس سيقان القصب لنشكل منها سورا لنخفي خلف السور المنطقة التي لن نستطيع تنظيفها، إذ لم يبق على افتتاح المهرجان سوى ساعات قلائل، ونحن نسوى الأرض الخربة ونسلي أنفسنا بتبادل آخر النكات منها الانتقادية والسياسية لتخفف من التعب المرهق.

سمعنا خلدون يناديا ذهبنا حسين وأنا إلى ناحيته وأشار إلى الأرض وقال:

- أنظروا ماذا وجدت.

وأنا أتقدم منه قلت:

- أتمنى أن تكون قد وجدت كنزا أثريا.

نظر إليَّ بمرارة وخيبة وقال:

- أنظري بعينيك يا عضو الهيئة الإدارية لاتحاد الطلبة.

كانت لهجته تدل على الانكسار والفشل والريبة، وجـدت كومة من السكاكين والشوكات، اقترب حسين ممعنـا النظـر وقال:

- هذه تشبه السكاكين التي نستعملها في القسم الداخلي.

وأخذ خلدون يستمر ويتوسع في الحفر أعمق وأعمق وكميـات أخرى من السكاكين تبرز من تحت أكوام التراب. لم أفهم لـم هذه الكميات الهائلة من السكاكين مدفونة هنا، جلـس خلـدون على الأرض الترابية محبطا يهز رأسه بألم قائلا:

- إذاً الاعتداء حصل كما رواه لي سلام لا كمـا ادعـاه قائـد أضرابكم دحام، لقد كذبتم علي، الاتحاد كذب علي.

ورمقني بنظرة عتاب وحنق.

بغداد (الستينيات)

بعد انتهاء ألقاء القصائد والخطب الرنانة التـي تـدين محاولة الاغتيال اللئيمة والغادرة للزعيم تجمعنا في مقر اتحاد الأدباء وقفت في ركن قصي بعيدا جدا عـن عبـد الـرزاق، وسهام تنظر إلينا تحاول قراءة نظراتنا وتفسيرها، قلت لها:

- لا تتعبي نفسك ستتجنب النظر ستتصرف بمنتهى الحكمة.

اقترب مني حسين بوجهه الممتلئ الضاحك أبـدا وقـال بمرح:

- ولج اشو أنت ماكو بالإذاعة.

- وتناثر من فمه رذاذ من اللعاب وقهقه عاليا. قلت له: دوامي من الساعة الثانية والنصف إلى الرابعة بعد الظهر أو من الخامسة والنصف صباحا إلى الثامنة حيث يجب ترجمة الأخبار العالمية،

اهتز كرشه من الضحك وقال:

- يعني وكت اللى اني نايم أنت تشتغلين ابتسمت.

قال:

- ولج قريت قصيدتي الأخيرة قمر.

قلت له:

- لا تفوتني قصائدك يا أبوعلي.

قال:

- هاي العوبة قمر من قسم التمثيليات عبالها هي المقصودة كلت الها ولج أنت شنو أنت مبربرة وعوبه، أي بلى أني ملهماتي نسوان الطبقة الراقية والمتزوجات بس مثل بنات لو.....

وردّد أسماء أغلب العوائل الأرستقراطية وأردف:

- أني صاحب ذوق، أني بودلير العراق.

وانتثر رذاذ لعابه مغطيا المساحة القصيرة التي تفصلني عنه، مالئا زوايا فمه بطبقة بيضاء، استدار ينظر يمينا ويسارا وهو يقهقه عاليا.

- العوبة بنت العوبة قمر.

نعم لقد قرأت قمر وأصبت بخيبة أمل كبيرة، هذا الذي يصف نفسه ببودلير يكتب كلمات مرتبة مصفوفة لا تحمل أي هاجس فني أبدا، تذكرت أزهار الشر لبودلير ومناظرته حول الفنون التشكيلية، ورفضه للتصوير الفوتغرافي، أين منه أنت يا أبوعلي بالكلام فقط بودليرا وفي السهرات الخاصة، وليس بعمق التجربة أو الإحساس، لأنك تجرأت، وتحدث بشيء من الحميمية عن المرأة، سميت بودلير يا لبؤس الفنون التشكيلية لو تحدثت عنها. يبدو أن صمتي أضحك حسين وقال اشو ساكته أنت وين لم أرد سوى بابتسامه وقال ولج شوكت تكبرين حتى اتصورج مرية تمام مو بنية زعطوطة، اكبري شوية لتبقين زغيره. لم أردّ بل تمتمت سأبقى صغيرة يا أبو علي.

كان عبد الرزاق يقف في الزاوية المقابلة للزاوية التي أقف بها وسهام تتحدث معه وأنا منشغلة بالحديث مع رشدي وحسين، كان رشدي متحمسا بالحديث عن نشاطاته في الكلية التي عاد إليها مجددا بعد الثورة، وحسين مازال متباهيا بقصيدته الجديدة قمر، شرد ذهني يستعرض أبيات هذه القصيدة الحديثة البنيان ولم أجد فيها ما يدعو إلى الأعجاب أنا أقرأ الصور الشعرية مثلما تقرأ اللوحة الفنية ووجدت من الصعوبة

أن أفهم كيف يكون فم الحبيبة (مدفأة تقذف الشرر) كما يقـول حسين في قمر.

فكرت بفان كوخ وهوسه ببنات الهوى يا ترى هل فكر أن يرسمهن كما يصف حسين قمره؟ وماذا عن بودلير وأزهار الشر، وأنا في سرحاني وضياعي بين الشعر والرسم سـمعت صوت عبد الرزاق يقول:

- هل أوصلك إلى القسم الداخلي.

هززت رأسي بكلا وابتعدت عنه مسرعة.

اقتربت سهام مني مستفسرة عن سبب ابتعـادي عـن عبد الرزاق بهذا الشكل، وقالت: ماذا قال لك لتهربـي منـه؟ وقبل دقائق دموعك كانت تناديه؟ لم أرد وماذا أقول لها: هـل احكي لها ما قالته لي ليلى؟ إلا أنني فضلت الصمت خرجـت إلى حديقة اتحاد الأدباء وتلقفتني نسائم تشرين الثاني، استنشقت العبير وحبست دموعي.

بغداد (الستينيات)

اتكأت على حافة النافذة المفتوحة في الطابق الأعلـى أنظر إلى الحديقة أراقب أغصان الكرمة، عناقيد العنب متدلية منها تبدو تحت أشعة الشمس كحبات لؤلؤية، اشتهيتها، لكننـي

لم أكن أملك الطاقة على النزول إلى الحديقة لقطف عنقود، لم أجد في نفسي القوة للنزول إلى الحديقة كأنما طاقتي قد رفضت جسدي وتخلت عنه، شعرت بخواء وفراغ وإحباط، كأنما قد انقسمت شطرين: روح عائمة هائمة، وجسد يتوق إلى ما يريد ويمتنع عن منال مراده، اليوم أنهيت صفحة مهمة من حياتي ويا ترى هل سأستقبل صفحة أخرى أم أنني قد طويت الكتاب أبدا، يبدو لي أن أيامي ستفرغ من الصور الملونة وستكون أياماً جادة وحيدة قاسية فيها ستنهزم تطلعاتي وستخبو روحي.

اخترت وعن وعي الغربة والبعد والتنائي، لن أستمتع بنظرات عبد الرزاق التي تخترقني وتدفئني، لن أستكين إلى صوته العميق وأنفاسه المتلاحقة في أحاديثنا، سأشتاق إلى رنة التلفون الموعودة وأحن إلى لمسة مقصودة تبدو عفوية ونحن نسير أو نجلس أو نقف.

سأفتقد ضحكاته الصادقة والطريقة التي يزم بها عينيه وهو يتظاهر بالتعجب من ردة أفعالي غير المتوقعة، وهزة رأسه في أوقات عنادي وتشبثي برأي الخاطئ حبا بالعناد والمشاكسة، واستسلامه اللامشروط لطلباتي المقصود بها أن تكون تعجيزية، كان يتجنب النظر في عيني يخفض رأسه أرضا ويقول تأمر مولاتي، وحينها فقط أتراجع عن عنادي

ومشاكستي وردة أفعالي العشوائية، أضع رأسي على كتفه وأتحسس بأصابعي أزرار قميصه الصدفية وأفكها، أبعد الزر عن فتحته وأنزلق بأصابعي الباردة على جسده العاري الشهي بهدوء وسكينة، مترقبة منه ردة فعل قوية حاسمة ويستكين لأصابعي العابثة، ويبتسم وتطول ابتسامته وأخفي رأسي تحت القميص وأستنشق عبير جسده الشاب، إعلانا مني عن تراجعي، ويتحول تراجعي إلى اندفاع حسي متلهف ونعوم في بحر جسدينا ونبقى ملتصقين لا نريد انتزاعا ولا بعدا ونستطعم قطرات عرقنا المالحة ونستنشق بعمق لهاثنا المتقطع.

بقيت أنظر إلى عناقيد العنب، ممسكة بيدي ببضعة أبيات أهداني إياها عبد الرزاق لم أستطع قراءتها، رغم أني قد قراءتها عشرات المرات سابقا إلا اليوم فلقد تاهت الكلمات بين عناقيد العنب، عيني لم تعد تميز إلا عناقيد العنب المتدلية. تمنيت أن أمد يدي لأطالها وأقطف عنقودا واحدا قد يعيد لي حيويتي وبهائي.

كنت أعرف أهدافي وطموحاتي التي أطّرتها، وعبد الرزاق كان محورها، والآن أحدق في الفراغ وأجد أمامي اللامتناهي، مستقبل مجهول غير محدد، مستقع الغربة قد يغرقني في ضحالة مياهه، سأواجه العدم واللامعروف واللامطروق،

سأسير في دروب لا أميزها وأتكلم مع أناس لا أعرفهم يا تـــرى هل سأحكي لهم؟ وهل هناك ما يُحكي؟ تجربة تلونت بـــالعنفوان انتهت بصمت، لم تجد هذه التجربة العميقة بدا من الموت سكوتا، الموت بدون عتاب وشرح وتعليل وبيان أسباب، أو أفراغ ما في القلب حتى لوم الطرف الآخر، كان لابد من الهرب بهـــدوء، لـــم أخسر معركة بل خسرت الحرب كلها، انسحبت في الوقت الـــذي تمنيت أن أدافع فيه عن مشاعر حميمية صميمة وعن مبادئ حقه وأن أتمسك بها وأجدني أتخلى عنها ببرود وبشكل مخطـــط لـــه عملي واقعي لا يمت للقلب والأحاسيس بصلة، أحـــاول جهـــدي مشاغلة مشاعري كي لا أرد على قلبي بالجواب القاسي النهائي.

رتبت كل شيء وكأني أخطط لارتكاب جريمة قتل عـــن سابق قصد ومتعمدة، ولكن الضحية هي أنا المقتولة أنا، وها أنـــا أواجه نفسي المذبوحة على أرض الواقع، بعد أن نفـــذت خطتـــي بكل مهارة وحذق، أحدق في عناقيد العنب ببلاهة وأتمناها، ولكنها بعيدة جدا هناك في الحديقة، تبتعد عني مقـــدار ارتفـــاع البيـــت، ارتفاع يكبر ويزاد كلما هفوت لعنقود عنب تلتمع حباتـــه تحـــت أشعة الشمس.

البيت فارغ هادئ موحش وأنا وحدي، والدتي في بيروت أخبرتها بأنني سأبقى في بيت جدتي طوال فترة غيابهـــا، لكننـــي

عدت مسرعة للبيت الخاوي مثل روحي، لأرسم بهدوء خطواتي الجديدة وأخطط طريقة سفري، يجب أن يكون موعد الابتعاد قريبا والمسافة بعيدة أبعد ما يكون، لأنأى عن المكان الذي شهد قرار وأدي لعواطفي وسحقي لقلبي، هذا القلب الفتي الذي اخترت له الجفاف والجدب.

الشفق بدا في الأفق، ومن بعيد أسمع صوت ناقوس كنيسة يدق دقات الحزن معلنا عن إقامة صلاة الجنازة لوفاة أحد المؤمنين، وتستمر دقات الناقوس كئيبة حزينة رتيبة، تخترق المدى بدون صدى، وتتناغم مع دقات خافقي الخابية. سمعت صوت محرك سيارة ورجل وامرأة يتكلمان، خُيل إليَّ أنه صوت والدي، بقيت شاخصة نحو الأفق المشتعل بحمرة وهو يودع الشمس إذ لم يبق فيها إلا النفس الأخير، فتح باب المرآب ودخل والدي يلف بيده ويعتصر خصر امرأة.

أفقت من شرودي و تأملاتي الحزينة وأصبت بالذهول إذ كانت معه روكزان، تلك المرأة المكتنزة الريانة صديقة والدتي.

بخطوات واثقة ومرح ولهفة واستعجال واضح على محياهما دخلا البيت الخالي، سارا في الممر الطويل المؤدي إلى باب غرفة الجلوس، سمعت صوت المفاتيح وثم غلق الباب، وإلى غرفتي في الطابق الثاني وصلتني ضحكاتهما

ممزوجة بأصوات تنم عن الشبق والشهوة ورغبات صـــريحة تعلن عن نفسها بإلحاح ولجاجة، رنة ضحكات ركزان مملـــؤة بالدعوة والإغراء وكلماتها مقتضبة لا تنبئ عن شيء ســـوى الرغبة والمتعة.

وبحذر شديد اقتربت من السلم المؤدي إلـــى الطـــابق الأسفل حيث هما، أصيخ السمع، باب غرفة نوم والديّ يفـــتح وصوت ارتطام جسد على الفراش ممزوجة بـــضحكة لزجـــة شرهة من والدي.

يصمتان فجاءة ثم أسمع همساتهما، تعلو أحيانا لتصبح كلمات واضحة عارية إلا من الخجل، وأحيانا تخبو وتضيع بين لهاثهما وصخب ضحكات معربدة طائـــشة. وفجـــاءة يختفـــي صوتاهما ويعم سكون قاتل، أنظر إلى ساعة معصمي، أنتظـــر بضع دقائق تمر وأحس وكان تلك الدقائق بمرورهـــا تـــذبحني وتقطع كياني، يستمر السكون، من شباك في أعلى السلم أشاهد شعاع شمس برتقالي ممزوج بلون الرماد على وشك الأفول، لم يعد يستطيع الشعاع مقاومة خيوط الظلام المتشابكة الكثيـــرة، زاد ضعفي وخذلاني إلا أنني بجهد متناه تماســـكت، أردت أن أفرض على جسدي المنهار قوة القتيل المهزوم فـــي لحظاتـــه نزعه الأخيرة.

نزلت بضع سلالم أخرى والذهول والحيرة ما زالا يعترياني، كنت أريد أن أواجههما وأعلن عن وجودي، اعترتني رغبة عارمة بالمواجهة والمجابهة والتحدي، شعرت بأنني قد أهنت، لم أفكر بوالدتي، لم يهمني شيء سوى نفسي، أنا التي قد اعتدي على كرامتها، أنا التي يخونني والدي، أنا التي رفضت أن أخون نفسي وفكري وكرامتي ودست على عواطفي يخونني والدي، أنا من تخلت قبل ساعات عن حبيب وحلم قد يكون مشرقا أبدا، والدي قد ظلمني، داسني وسحقني وسخر من كل ما قد علمني وبكل ما أؤمن به، لم أدر ما الذي أريد أن أقوله لهما وأنا أغص في دموعي المخنوقة، لم أفكر بالكلمات ولا بالصراخ المفروض أن أواجههما به، نزلت بضع سلالم أخرى وأنا أغلي وأفور من الغضب والحقد والكره لكليهما وكلي تصميم على المجابهة.

ظلام المساء الشاحب بدأ يتسرب بهدوء ويدخل البيت خلسة ولكنه يغطي كل شيء، بوشاح قاتم ثقيل، وأنا أجر خطواتي جرا محاولة الوصول إلى غرفة نوم والديّ، إلا أنني أنهار وأجلس منهكة على الدرجة الأخيرة من السلم وكأنني قد فقدت كل قواي، وضاعت مني عزيمتي، الإهانة لوّثتني من أعلى رأسي لأخمص قدمي غسلتني بالعار، كللتني بالمرارة

ومنحتني صكا ممهورا بالخزي، شعرت بثقل جسمي وبـــرودة أعضائي، أصابعي تجمدت وساقاي لم تقويا على حملي.

لا صوت يأتي من غرفة نـــوم والـــدي، هـــدوء تـــام كالصمت الذي يلف الجثث بعد تنفيذ أحكام الإعـــدام، مـــشيت بضع خطوات أخرى ثقيلة متباطئة، اقتربت من البـــاب، لـــم أستطع مد يدي لتفتح الباب، جلست على الأرض قرب الباب، أصبح ثقب المفتاح قريبا من مستو نظري لم أقاوم نظرت من خلال الثقب.

كلاهما عاريان تماما يقفان بمواجهة أحـــدهما الآخـــر باسترخاء، ركع والدي أمامها في خشوع تام وكأنه في معبـــد وثني ينحني لإلهته متضرعا إياها ومقدما لها روحه وجـــسمه وكيانه كأضحيه.

أنحنى أرضاً مقبلاً أصابع قدميها أصبعا أصبعا، بـــدأ من أبهام قدم اليمين ثم إلى أبهام قدم اليسار وهكـــذا أصـــبعا أصبعا يمينا ويسارا وهي تدفع برأسها إلى الخلف والأمام فـــي حركة رتيبة وتترك خصلات شعرها المصبوغ باللون الأشقر تندفع إلى الخلف لتصل إلى منتصف ظهرها الممتلئ السمين أو إلى الأمام منثورة على ثدييها المكتنزين وحلمتيهما نافرتين، ثم تميل برأسها يمينا وشمالا وتتموج خصلات شعرها مع اهتزاز

جسمها، صوت اقرب إلى الأنين يصدر عنها، ثم أخذ والـدي يقبل كعب قدميها ثم يصعد بقبلاته إلى ساقيها ولكـن بهـدوء وببطء متأنيا وكأنه يقبل تمثالاً زجاجياً ثميناً يخاف عليه مـن الكسر.

وصل إلى ركبتيها وأخذ يستعين بيديه على احتـضان فخذيها وعجزيتيها الممتلئين وهـو يعتـصر طيـات اللحـم المتراكمة ورأسه يقترب ويزداد اقترابا، وأنينها يمتلىء نعومة وطراوة وبدأت تبعد رجليها بعضهما عن بعض ورأس والدي يصعد إلى الأعلى بطيئا هادئا، وفخذاها ينفتحان رويدا رويدا، وصل رأسه إلى أسفل بطنها المنتفخ الذي تدلي علـى رأسـه وبعثر شعره، ثم وصل إلى باطن التقاء الفخـذين المكتنـزين وابتعد فخذاها مسافة تكفي ليستكين رأس والـدي وفمـه فـي الوسط في النقطة التي يبتغيها، نقطة الرجاء والمنى والمبتغى.

شعرت بغثيان شديد، لم أعد أستطيع أن أرى أي شيء، ظلمة المساء الشاحبة سرعان ما تلاشت وجـثم الليـل بلونـه الأسود الذي صبغ مقلتي، كأنني عميت، ازداد الغثيان، معدتي أصبحت في فمي كأنها تريد أن تندلق بما فيها وتخـرج مـن جوفي، أحشائي معصورة بألم نابع من شغاف القلب، لم أقـو على الحركة، خوار اعتراني، شعرت بالإنهاك والإعياء، ولـم

أعد أقوى حتى على رفع أو سحب جسدي، كل ما أبغيه الآن هو الابتعاد، لم أعد أنوى مواجهتهما، كيف أواجههما وبأيّ منطق أحاجج الخيانة والخسه والابتذال، كل ما أردته الهروب والفرار، الفرار والهروب ما أجيدهما، زحفت على يدي وركبتي بهدوء وأنا أقاوم القيء الذي بدء يغطي رقبتي وصدري وملابسي والأرض، سائل لزج أصفر ممزوج بقليل من بقايا تفاحة لم تهضم.

رائحة حموضة وزفر مقززة ملأت المكان طغت على عبق نسمات الليل المسرعة الهاربة، وعلى بقايا رائحة نفاذة حادة ما زالت عالقة تحوم في أجواء غرفة الجلوس من عطر تلك المرأة، تزحلقت على الأرض الملوثة اللزجة والتي كانت للحظات ماضية نظيفة تلتمع أرضيتها المرمرية البيضاء، وبدأت أجر جسمي جرا، أزحف على الأرض الباردة محاولة ترك غرفة الجلوس، وأنا ألهث، وصلت السلم بصعوبة وبمشقة، تلمست السلالم سلمه سلمه، تسلقت لنصف المسافة واستلقيت شبه مغمي علي.

استولى ظلام حالك دامس على البيت بالكامل، تلاشت أصوات ناقوس الكنيسة، تلحفت بسواد الليل بقيت عالقة بين الحياة والموت ورحت في سبات عميق ثقيل.

قال لي أبو يعكوب إن أم ميسون معي وميسون في الجبل في مدرسة داخلية، ونحن نبحث عن شقة هل لك أن تساعدينا مثلما وجدت شقة لدلال؟ قلت له هناك شقة في العمارة التي تسكنها والدتي في الأشرفية أعرف صاحبها أستطيع آخذك إليها الآن، قال: سمعت أنت تسكنين في دير للراهبات، ويقفل عليك الباب الساعة السادسة مساء، قلت: صحيح، ضحك وقال: من موسكو إلى دير للراهبات الكاثوليكيات! لم أرد، سرنا متجهين من ستاركو نحو البرج مررنا بالطويلة وساحة الدباس وسوق سرسق، ثم اتجهنا نحو البرج وأخذنا السرفيس إلى الأشرفية، قال أبو يعكوب

- يوسف ما زال مختفيا.

- أعرف سمعت ذلك من أمي.

- رأيت عبد الرزاق هنا سال عليك، أمك طلبت منه أن يراك.

- أعرف ربما سأراه يوما ما.

- لا تصدقيه لو عزف على أوتار صحته والقرحة في الأثني عشر، إنها اختلاقات يُحدّث الجميع بها ما أن يرى أحدا حتى يبدأ بهذه الأسطوانة المشروخة لجلب الإهتمام، أتعرفين خلال وجودنا في معسكر السعدية بدء بعزف هذه الأسطوانة وصدقناه إلا أن اكتشفنا كذبه عندما وجدناه معظم الليالي سكران

– لا شأن لي به و لا تهمني صحته وسأراه تلبية لرغبة أمي فقط.

أمي سافرت قبل أكثر من أسبوعين عادت إلى بغداد لزيارة بعض أفراد العائلة، لا أعرف كيف تتحمل مشقة السفر الطويل إلى بغداد وتترك البيت في بيروت، أنا أعجز عن وصف حالتي، بعد انقلاب شباط المشؤوم، وضعي قلق وعلاقتي بوالدتي متوترة أعيش في صراع رهيب.

منذ ذلك الصباح المثلج في موسكو، حين سمعت دقا على باب غرفتي، دقا عصبيا عاليا ينذر بالشؤوم، سمعت صوت وفية تقول مذعورة: ولج كومي ولج كومي، معزايه، كومي، انقلاب بغداد وقتلوا الزعيم. فتحت الباب وارتديت معطفا ثقيلا وتجمعنا كلنا في غرفة نجاح السورية إذ لديها راديو يلتقط الموجات القصيرة والإذاعات الأجنبية، نجاح تدرس الكيمياء وزوجها يعد رسالة الدكتوراه. التمَّ الكثير من الأصدقاء في بيت نجاح أخذ جبار يردد بدون وعي كلاها طريميش كلاها طريميش أويلاخ يا به كلاها ولكم كلاها طريمش، تسمرنا حول المذياع واستمعنا إلى صوت سهام الشكرة من راديو بغداد تصرخ بصوت هستيري اقتلوهم اسحلوهم.

بيروت الحبيبة تخفف عني، وسوق العازارية بمكتباته العديدة والتنوع في القراءة كان شاغلي الوحيد بالإضافة إلى تطوعي لتدريس أطفال اللاجئين الفلسطينيين في سن الفيل، ثم اندماجي الكلي مع حياة الراهبات التي وجدتها غريبة وجديدة علي أردت أن افهم دواخلها أكثر.

أصحو فجرا مع الأيتام المكلفين بتنظيف الدير من الساعة السادسة صباحا وأشاركهم العمل وتمنعي رئيسة الراهبات، إلا أنني كل مرة أقنعها بسبب من الأسباب الدينية، منها أنني أريد أن أكفر عن خطيئة ما، واليوم على إماتة جسدي ورغباتي، وغدا نذرت نذرا للعذراء مريم، وبعد غد حلمت بالقديس يوسف يأمرني بتنظيف الدير، وهكذا فلقد تعلمت أصول اللعبة. أما في السادسة مساء بعد غلق أبواب الدير على الجميع، تزداد الحياة متعة في ساعات العزلة تلك، إذ نجلس نستمع إلى قصص وحكايا الراهبات المسنات عن حب يائس أو ظلم زوجة الأب أو قسوة الأعمام أو رؤى لمريم العذراء تدعو إلى نبذ المتع والالتحاق برتل المصلين والمتبتلين.

أروع ساعاتي هي ساعات طويلة أقضيها في دار العجزة والمتخلفات عقليا والتابع للدير حيث أطبّق ما يقوله

السورياليون، وخاصة أندري بيرتون عن الكتابة الأتوماتيكية اللاشعورية والرسم التلقائي والأقوال والكلمات العشوائية مع نزيلات هذه الدار والمفارقات الرائعة والأحاديث العفوية السوريالية، التي لا تعني أي شيء ظاهريا، ولكنها تجذبني وتحفزني لمعرفة المزيد عن كل نزيلة، أحيانا أجد الحكمة من أفواه لا أتوقع أن تنطق، وتلك الحكم تقال لمرة واحدة ولا تعاد ولا تتذكر قائلتها ماذا تفوهت، بعد لحظات، وأتيه أنا بين الكلمات الضائعة المبهمة والحكم غير متوقعة.

نوار تزورني كل يوم تأخذني إلى مكان عملي التطوعي، وبنفس الوقت تلومني للقبول بالعمل المجاني، تنتقدني لبقائي مع الراهبات وتمتعي بالحياة معهن وقبولي بأن أكون سجينة من بعد الساعة السادسة مساء وكانت تطلق عليه حالة منع التجول، وتقلق خوفا من أن أنساق معهن وقد أعلن يوما كرهي للحياة وأعتزلها وأترهب، أضحك منها وأؤكد لها بقائي في الدير يزيد بي حب التمتع بالحياة، وأنني ما زلت أتطلع لليوم الذي أجد فيه (الحبيب) والذي أوعد نفسي بأنه سيحمل صفات والدي الجيدة فقط، فأنا ما زلت أتمتع بعقدة الكترا وأحلم باليوم الذي أجد الحبيب الذي يتمتع بعقدة أوديب، ففي خاطري أن الرجل الذي يحب ويفخر بأمه سيحب زوجته.

بشك كبير تتلقى نوار كلماتي وتختلف معي تماما في طروحاتي المجنونة كما تصفها، وتقول: رجل مثل والدك الذي كان يخون أمك بوضح النهار وتصرخ بي مجنونة مجنونة، ثم تحفزني دوما للحصول على عمل مُجْزٍ أو إكمال دراستي وتزين لي المستقبل الزاهي الذي ينتظرني لو استمعت إلى نصائحها وأهمية أن أعود إنساناً أعيش حياتي كما تعيش بقية بنات جنسي، لم السكن في الدير وبيت والدتي مغلق؟ لم التمتع بالبوابة الكبيرة وأقفالها الكبيرة الصدئة والتي تغلق الساعة السادسة مساء ومباهج بيروت تزهو أكثر بعد السادسة؟

إلا أنّ الخروج من الإحباط والضياع وبحور الخيبات كان شغلي الشاغل ومسار البحث عن الذات طويل شاق، كنت أريد أن أحس بالألم الحقيقي ألم فقدان الوطن والمهانة الذي يعاني منهما اللاجئون وأشاركهم إياه، وبالمشاركة يخف ثقل الأحمال، وكذلك القسوة التي يعامل بها ويعاني منها الأطفال اليتامى في الدير، كنت أريد أن أبقى مع الأطفال اليتامي أحكي لهم القصص وأخفف عنهم وأجعلهم يحلمون بغد آخر.

العوالم فوق الواقعية التي تعيشها العاجزات والمتخلفات عقليا استحذوتني وجعلتني أرى الدنيا من زاوية غريبة لا أعرفها ولا أعيها، أردت أن أخوض تجارب مختلفة لا تنحصر

في الذات ولتتعدى الأنا، أريد أن أكون الشاهدة على ممارسات تخص غيري، أكون مراقبة ومشاركة لما يدور حولي، كل ما أراه أصنفه من ضمن اللامعقول وكل ما مر بي من تجـارب رغم تنائيها عما أرى الآن أيضا من ضمن اللامعقول كيف لي أن أفهم وأستوعب بدون أن أكون أنا مصب الاهتمام؟ لن أكون أنا المحور، لن أدع رغباتي وتطلعاتي تقوداني، بل علي خلق معادلة جديدة مبتكرة وأن أطعّم التحدي والمغامرة بالمـسؤولية والعقلانية.

نوار وأنا نتحدث عن خيبتنا وعن أحلام لـم تـزرع لتزهر، بل أجهضت قبل أن تولد، إلا أنّ شبابنا ما زال يدفعنا لنتطلع للمستقبل، حتى عبد الرزاق لم يعد لـه مكـان عنـدي سأذهب لأراه وسنتحدث حديثا سطحيا ربما سنظل نثرثر لنملأ فراغ مشاعرنا.

ونمير لم يكن له مكان في مستقبلي على أي حال، ولم يكن لي مكان مستقبلي عنده كذلك، فالقواسم المشتركة القليلـة التي جمعتنا توارت خلف العوائق المشتركة الكثيرة.

أما سيرغي ذلك الروسي القح المندفع المتحمس الـذي يكرع الفودكا ويقرأ الشعر ويسب بوشكين لجمالـه وعنفوانـه ويبقى يردد أشعاره ويستشهد بعبـارات مـن ليرمونتـوف أو

تشيخوف، وحتى صلوات وأدعية روبليف، لم أقتنع بطروحاته، لم أجد ما يربطني به، وهو واع يسوح في عوالم تعود إلى الماضي يتمسك بها محاولا نسيان خيبات الحاضر وفي سكره ينزع نحو عوالم عاطفية رومانسية خيالية.

مشينا على الكورنيش قرب الروشة لم أجد ما أقوله له ولم يسأل هو عن شيء محدد، بقينا نسير ونتجاذب أحاديث عابرة لا تعني أي شيء، وقف عبد الرزاق فجاءة ونظر في عيني، خفت كثيراً أن أعود وأرى ذلك البريق الذي أطفأناه منذ أكثر من ثلاث سنوات، زم عينية ويبدو أنه هو أيضاً كان يريد مقاومة عودة ذلك البريق فأشاح ببصره بعيدا شاخصا عينيه نحو البحر، قال لم تسأليني هل سجنت؟ عذبت؟ من حقق معي! وتنهد تنهيدة عميقة أعرفها جيدا، قلت: حدثني، قل لي:

- هوبي كان رئيس المحققين:

- صحت مرعوبة: مَنْ؟ قلت من؟ هوبي!

- نعم.

وقفت مذهولة وكان صخرة ضخمة كبيرة جثمت على صدري وفراغ هائل قد ابتلعني، أردت أن أحس بوجود إنسان حي بقربي، وبدون أن أعي مددت يدي أمسكت يد عبد الرزاق بقوة وضغت عليها بلهفة وحنان وأنا أقول أنت تمزح، بقيت ممسكة بيده إلى أن شعرت بموجة دفء أليفة كانت قد فلتت

وضاعت مني تنتقل إليَّ، سحبت يدي بسرعة، نظر إلى يـــده الفارغة ويدي التي فرت مسرعة وهز رأسه، لا أريده أن يعود من جديد نبضنا حيا في كياني لتلتاع روحي.

لا أريد للوعة أن تعود، نزعه من نبضي كلفني الكثير، استغرق حواسي واستنفذها، وقبوله بوضعه العائلي المـــأزوم ورضوخه له كان لا بد منه. كلانا كان لا بد لنا أن نهرب مما كنا نحلم بأن يزهر، وأنا همّي أكبر من همه إذ زاده معرفتـــي بخبايا أفكاره العقيمة التي صدمتني ولم أبح له بها، كان لابد أن أفر من مملكة الخيال الشهية اللذيذة إلى واقع لم أستطعم مذاقه، واقعٍ قد ينمو بطيئا ثقيلا وقد لا يورق أبدا.

بغداد (السبعينيات)

أخذ ابني يصفق ويردد وهو يتظاهر بالحبور.

– هذا سايقنا الورد هسة يوصلنا ويرد.

وأنا ممسكة بمقود السيارة بإحكام وانتباه أريد أن اقطع شارع أبو غريب المزدحم بالشاحنات التـــي تعـــرف نفـــسها بكلمات مكتوبة عليها بأنها مركبة طويلـــة، شـــاحنات تـــسير برعونة ونزق ولا تراعي أقل أصول وقواعد الـــسياقة، وأنـــا أحاول الإفلات منها أو تجنبها، أريد أن أصل بسلام .

يَوْمي هذا سيكون طويلاً كئيباً مليئاً بالحزن والأسى، بدأ صباحي الساعة الرابعة فجرا، هيّأت بعض الوجبات الضرورية لأخذ القليل منها معي والبقية أبقيتها لأطفالي الصغار وبقية أفراد عائلتي.

وضعت كل ما أحتاجه في السيارة، أيقظت ابني البكر ليرافقني في زيارتي لسجن أبو غريب، وضعت عباءتي على المقعد الخلفي كي أرتديها عند دخولي السجن وتأكدت من أن الأوراق الرسمية وتصاريح الدخول وهوية الأحوال المدنية ورسالة التوصية الشخصية مع سوار الذهب المطعم بالياقوت واللؤلؤ وحجل نسائي وساعة ذهبية رجالية مع أساور لطفلة، هذه الرشوة التي طلبها مني مسؤول الأمن كلها في حقيبتي هي ما سأعطيه إياه مقابل السماح لي بإدخال الأوراق وبعض الكتب، أفرغت حقيبتي من كل شيء إلا بضعة دنانير، أعطيت ابني ابن السابعة عشر مبلغا كبيرا نسبيا لتوزيعه على الشرطة والحراس فهو الرجل الذي سيكون مسؤولا عني وأحتمي به في زيارتي لزوجي السجين.

انحدرت بالسيارة عابرة السدة الترابية، وتعالى التراب مغطيا رؤيتي للطريق المليء بالحفر والمطبات، السيارة تتمايل يمينا وشمالا مستجيبة لقيادتي لها في محاولاتي اليائسة لتجنب

الأخاديد الكبيرة المغطاة بالوحل والمياه الراكدة الآسنة، بقيت أبحث عن مكان قريب نسبيا من السجن ولم أفلح، بقيت أبحث سدى، وأخيرا اضطررت أن أوقف السيارة على مسافة قد تستغرق مشيا أكثر من ساعة، ما زال أمامنا وقت طويل قبل أن تفتح بوابات السجن الحديدية الكبيرة، فتحت حقيبتي، أخرجت المصوغات الذهبية، تحليت بقسم منها ووزعت البقية ما بين جيوبي وشنطتي .

حرارة تموز اللاهبة والأرض الترابية الوعرة، وصراخ الشرطة بنا ومنعهم لنا من الاقتراب من أسوار السجن الخارجية، المهانة والمذلة لوقوفنا ساعات تراكمت لتزيد من بلوانا وحسرتنا ولتنفذ كالطعنات في صميم كرامتنا.

تتحرك أمامي ببط أكداس من البشر رجال وشباب وأطفال ولكن الأغلبية منهم نساء يرتدين العباءات، وكأنهن أمواج من القار، سوداء ثقيلة وبطيئة تتمايل مرغمة باتجاهات مختلفة وبشكل عشوائي.

أمسك ابني بيدي بقوة خوفا من أن أضيع في هذا الزحام وودفعتنا موجة قوية من الخلف سقطت عباءتي من على رأسي، واستقرت على كتفي ولم أبالِ بإعادتها فيدي بيد ابني والأخرى تحمل حقيبتي اليدوية الثقيلة المملوءة ببعض

الكتب وكميات من الأوراق الفارغة والتي أرجو أن أوصلها بسلام لأنها من الممنوعات وكنت أتوقع أن تقوم المصوغات الذهبية بهذه الخدمة.

يبدو بعيداً نسبيا برج حراسة السجن بسياجه الحديدي والذي يعلو جدران أبو غريب الإسمنتية المرتفعة بلونها الرمادي الكالح، وهناك شرطيا حراسة متأهبان أحدهما يحمل رشاشة والآخر مصوب مدفعه نحونا فنحن في المدى، إلا أن هذه الجموع الحاشدة كانت تعرف أنها ستكون هدفا سهلا لو استفزت هذين الحارسين، بقى الصمت الرهيب مخيما على هذه الجموع، لم يتكلم أحد أو ينبس ببنت شفة، النساء كن واجمات ساكنات شفاههن تتحرك صوت غير مسموع يرددن الأدعية وآيات قرآنية ويطلبن الشفاعة والصبر همسا، وينزفن ألما ولوعة ويعوضن عن الدموع بقطرات كثيفة من العرق المتصبب من وجوههن، إذ أن مآقيهن لم تعد تعرف كيف تصب الدموع، بصمت وبحكمة وروية يحاولن تهدئة صغارهن بضمهم إلى صدورهن، ويستكين الأطفال وهم ينصتون إلى الوقع المتلهف لنبضات قلوب الأمهات الواجفات.

الصلابة والرصانة بدت على وجوههن التي تحكي الكثير عبر سكونها المرعب، كنت أشعر بأنني شريكتهن في

الألم والقوة رغم هشاشة حالتنا جميعا وصعوبة موقفنا، وبالإضافة إلى إجهادنا البدني، تعبنا من الوقوف لمدة تزيد على الخمس ساعات زاد من همنا ولوعتنا، إلا أنَّ المحن تمنح العزيمة وتدفع بنا إلى تحدّي العذابات والإصرار على البقاء.

في تموز تهرب النسمات ويثقل الهواء والشمس تتباهى بأشعتها المحرقة والتي تبدو قوية مشعة رغم الصباحات الباكرة، ولكن حرقة القسوة والتعسف، من الإحكام الجائرة والطويلة لجرائم مدبرة وغير مرتكبة وقسوة الفراق وقسوة المجهول الذي ينتظرنا أمّر وأقوى من حرقة شمس تموز.

موسكو (الستينيات)

الكلية التي انتسبت إليها استمرت تقدم دروس اللغة الروسية وكنت مصرة على تعلم اللغة بشكل عميق ومكثف ومُدرستي كانت تهوى الشعر، وباتفاق معي قررت أن تدرسني الشعر الروسي، بوشكين كان الشاعر الذي اختارته لأنها اعتقدت بأنني رومانسية جدا، وبينت لها أنني عملية أكثر من كوني رومانسية، إلا أنها لم تقتنع إذ تعتقد أن البنات الشرقيات كلهن شهرزاد. بوشكين كان صعباً جدا، وكان يستغرق مني وقتا طويلا لاستيعابه، إلا أنّ مدرستي لم تهتم بل كانت

تشجعني وتحفزني لأنني كنت أتجاوب مع الشعر بعمق وأعمل بجد لكي أستطيع فهم اللغة الصعبة.

الكلية كانت تستقبل طلبة من مختلف القوميات السوفيتية والجنسيات الأجنبية، في ساعات الاستراحة كنا نجتمع في المطعم المخصص للطلبة ونتبادل الأحاديث وتناقش في الأمور الحياتية وفي يوم تقدم مني رحمان حمزاتوف وقال لي هامسا:

- هل تجيدين العربية؟

قلت له وأنا أضحك وبصوت عال:

- طبعا، وهل تريد أن أعلمك العربية.

امتقع وجهه وطلب مني إلا أرفع صوتي، وقال:

- هل أستطيع أن أكلمك في مطعم الكلية بعد انتهاء الدروس.

قلت له:

- يا عم غدا سأجلب معي كتاب باللغة العربية، فلو حضرت مبكرا لمطعم الطلبة سأريك إياه.

سكت حمزاتوف على مضض وقال:

- كما تريدين يا رفيقة.

خرجت مبكرة من القسم الداخلي، أخذت قطار الأنفاق من محطة لينسكي كوراخ متجهة إلى محطة تياترالنايا، الرحلة ستستغرق وقتا لا بأس به رغم أنها مباشرة، أخذت معي كتاب

كوليت خوري "أيام معه" وكنت متلهفة لإكماله، وصل قطاري إلى المنطقة التي أبغيها، نزلت مسرعة وذهبت لمسرح البلشوي لحجز بطاقات بالية كمونة باريس التي ستعرض بعد ثلاثة أسابيع، أخرجت لبائعة التذاكر هويتي الجامعية للتعرف على كوني أجنبية ولم أجد صعوبة في أقناعها للحصول على ثلاث بطاقات، بعد أن دفعت لها ضعف الثمن.

عدت مسرعة للكلية، وفي مطعم الطلبة جلست بالقرب من طالبة فيتنامية أترقب حضور حمزاتوف، تحدثت وإياها عن الحرب التي تديرها أمريكا ضد الشعب الفيتنامي، قالت لي شووا إنهم سوف ينظمون مظاهرة وأسعة للطلبة الأجانب للاحتجاج على الحرب وسيتجمعون أمام السفارة الأمريكية، سألتني أن كنت سأشارك، أكدت لها رغبتي بالمشاركة فلن تفوتني أي مظاهرة تستنكر الحروب، وصل رحمن متأخرا بعض الشيء اعتذر وقال:

- كان عليّ أخذ الحيطة.

لم أفهم ما يعني، قلت له:

- أي مساعدة تريد؟

قال:

- أريد منك أن تساعديني في أمر مهم جدا، ولكن أرجو منك ألا تحدثي أحدا عما سأطلبه منك.

قلت له:

- يا عم حمزاتوف قل لي ماذا تريد وأعدك لن أقول لأحد أنك طلبت مساعدة طالبة سنة أولى مثلي، وأنت ستتخرج قريبا وبيدك شهادة الماجستير.

قال:

- المساعدة لا علاقة لها بالدراسة، أنها مسألة شخصية، أريدك أن تقرأي لي نصا باللغة العربية.

قلت له مازحة:

- أرجو إلا يكون رسالة غرامية يا عم حمزاتوف، فلقد كبرت على هذه المغامرات.

ابتسم وقال:

- يا ابنتي أنا متزوج وأحب زوجتي ولدي أربعة أولاد، الموضوع أهم من ذلك سأجلب لك الكتاب المرة القادمة.

- إذاً أنت تريدني أن اقرأ لك كتابا وليس صفحة واحدة؟ ولكنك يا عم لا تعرف العربية فعلي إذاً أن أترجم لك النص أيضا.

نظر إليَّ بصبر وقال:

- لا تتعجلي يا ابنتي هل من الممكن أن أزورك يوم السبت أو الأحد القادم.

قلت له:

- على الرحب والسعة وأتمنى أن تكون زوجتك معك، ولكن لا تنس أن تجلب معك كتابك فإن السرية والتكتم أمر مثير جدا،

أنت تذكرني بالنشاط السياسي في بلدي، ولكننا هنا والحمد لله نتنعم بأجواء الحرية بكل أبعادها من ثقافية إلى فنية إلى سياسية.

أطرق حمزاتوف برأسه ولم يرد على تعليقي.

صباح الأحد طرق العم حمزاتوف باب غرفتي ومعه زوجته، شابة آسيوية المحيا خجولة أنيقة ترتدي زيا قوميا من قماش حريري بألوان زاهية متناغمة.

قال حمزاتوف:

- أرجو ألا تكوني قد أخبرت أحداً حول مسألة مساعدتي.

قلت له:

- بالحقيقة أخبرت زميلاتي أن لدي ضيوفاً لكي لا يأتين فجاءة بزيارة غير متوقعة.

شكرني حمزاتوف بلطف.

جلسا ساكنَيْن فترة حسبتها امتدت دهرا، لم أكن أريد أن أبدو فضولية أو ضجرة أو أن أقحم أي أسئلة، كما وأنني لم أعرف كيف أتعامل معهما، بقيت صامتة، فضلت السكوت، قمت بضيافتهما بتقديم الشاي والمعجنات، امتدت يد حمزاتوف إلى جيب سترته الداخلي وأخرج لفافة ورقية مربوطة بشريط من الساتان الأخضر وأخذ يفتحها بتأنٍ وتؤدة ويتمتم كلمات غير مسموعة ولا مفهومة، أخذت اللفافة تصغر وتصغر والأوراق التي تلفها تتلقفها يد زوجته وترتبها وتطويها بعناية

وإجلال، وأنا أراقب ما يحدث أمامي وكأنه طقس رتيب صامت ومقدس، وأخيرا ظهر كتاب مجلد بجلد أخضر اللون ناولني إياه وقال:

- أرجوك أقرأي لنا أول صفحة.

مددت يدي الوجلة المترددة ومسكت الكتاب فإذا به القرآن الكريم فتحت أول صفحة وقرأت له سورة الفاتحة بهدوء وإلقاء رصين يناسب النص، وبعد قراءة الآية الأولى أطبقت الكتاب وبدأت أكمل سورة الفاتحة عن ظهر قلب وبعد أكمال سورة الفاتحة قمت بقراءة بعض الآيات من سورة من البقرة.

إلى أن وصلت الآية "اؤلئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين"، أطبقت القرآن الكريم وأخذت أردد آيات من سورة مريم، وقرأت: "يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميًا"، إلى أن وصلت إلى "وسلام عليَّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أُبعث حيا".

توقفت وقلت:

- يا عم حمزاتوف هل نجحت في الامتحان؟ هل تأكدت من أنني أعرف العربية؟

قال لي:

- لما توقفت أرجو أن تستمري.

- لماذا؟

- لأنني أريدك أن تقرأي لي القرآن، لست هنا لأمتحن عربيتك بل لأسمع القرآن بلسان عربي.

- ولم السريَّة اجلب القرآن الكريم للكلية وسأقرؤه لك.

- يبدو أنك لا تعرفين ما يدور هنا فأن قراءة القرآن ممنوعة إلا القرآن الرسمي المعتمد المحرف من قبل السلطة وفي الأوقات والاحتفالات الرسمية وجوامع ومساجد الدولة وفي أيام محددة.

وأخذ حمزاتوف يشرح لي خفايا ما يدور من محرمات وممنوعات.

قلت لهم بأنني لست بمسلمة إلا أننا ندرس القرآن الكريم كجزء من دراستنا للغة العربية وأنني أعي وأفهم البعد الثقافي لعالمنا العربي الذي نعيشه وأنا جزء لا يتجزأ منه، حكيت لهم عن الشعر العربي والفكر الصوفي وابن عربي وأنني أومن وأروج لما يقوله في شعره:

لقد صار قلبي قابلا كل صورة فمرعى لغزلان و دير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف وألواح توراة ومصحف قرآن

واستمرت زيارات حمزاتوف وزوجته لي لأشهر طويلة، خلالها تفتحت عيني على أمور جديدة لم أكن أعرفها،

وأكتشف طوباوية الأفكار التي تشبعنا بها بعد اصطدامي بواقع لم أكن أتوقعه وتيقنت بأن خيبة كبيرة أخرى ستضاف إلى خيباتي الكثيرة.

بغداد (الخمسينيات)

قضينا يوم جميلا في احتفالات عيد الجيش، الطقس بارد جدا ولكن الأجواء الصاخبة أضفت حرارة على الجو، والدتي مع بقية أفراد العائلة يطلون علينا من شرفة بيت في رأس القرية، خالي وصديقه ودود يرقصان الدبكة الكردية والجوبية مع مجموعة من الشباب والشابات، أصوات النأي تختلط بالمطبج والطبلة مع الدف، أغاني بلغات ولهجات تتمازج وتتماوج وكأنها ألوان قوس قزح، فتيات يرتدين ملابس قومية مزركشة ملونة الأحمر والأصفر والأزرق وكل الألوان التي عادة تتنافر تناغمت وكأنها تكمل الواحدة الأخرى وتزيد من نضارتها، كنت أرتدى الملابس العربية الجنوبية الفوطة والجرغد والخزامة والشيلة والهاشمي ولم أشأ أن أغير ملابسي الجنوبية، ففها شيىء من عبق حبيبي، أرتديت معطفي الصوفي الثقيل ليقيني برد كانون.

شارع الرشيد كان فخورا مزهوا بمن فيه، المحلات علقت الشرائط الملونة، أطواق من النصر نصبت من قبل أصحاب المحلات، كلها مزوقة بالأضوية الكهربائية الملونة وبكل أدوات الزينة التي تخطر على البال، الصور تملأ واجهات الدكاكين، باعة الأكل واللبلبي والشلغم والشربت، يقدمون بضاعتهم مجانا للمحتفلين، والجمهور يرمي عليهم النقود الفضية والورقية بدون حساب، جمهور من مختلف الأعمار: نساء ورجال، الزغاريد تملأ الأجواء والدموع تعلو الوجنات والأكف لا تكف عن التصفيق، منها تصفيقة جنوبية بصراوية مميزة، ذات وقع متناغم متناسق، أصوات الحناجر تختلط بأصوات الآلات الموسيقية ووقع أقدام ترقص بنشاط وحيوية.

لا نية لدى الناس على إنهاء الاحتفال والساعة تجاوزت منتصف الليل، يبدو أن الكل يريد أن يرى الفجر وهو ينبثق ليستقبلوا عاما جديدا مليئا بالأمنيات والتطلعات والإنجازات، ما زالت أصوات الناي والطبل والزرنة والمطبج تتمازج وتخلق نغمات موسيقية جديدة غير مألوفة، نداءات تطالب بتطبيق حقوق حرمت لسنين، دعوات لأنصاف المحتاجين.

سيارات كبيرة زينت وزوقت، بالورود والأعلام وسعف النخيل تتحدث عمن تمثلهم بصدق وإخلاص، سيارة لنقابة الميكانيك حيث العامل متباهيا بعدته وأدواته التي بها سيبنى الوطن، وأخرى تصور الفلاح وهو يحرث أرضه وينتشي بماء دجلة والفرات، وتمر المواكب الاحتفالية والجمهور يقابلها بالهتاف والتشجيع والدعم وتصدح الموسيقى عاليا ابتهاجا بقدوم المواكب الاحتفالية الكرنفالية.

أنشق الفجر وما زلنا في أوج نشاطنا وكأننا لم نسير لساعات في هذا الجو الشتائي القارص، سيرا على الأقدام اتجهنا نحو باب المعظم، وسرنا مجموعة كبيرة من الطلاب والطالبات من كليات مختلفة لنذهب إلى أقسامنا الداخلية، روح الأخوة والصداقة والسلام تحتوينا والفرحة تغمرنا، الشبان يتدافعون لتقديم أي خدمة، شعرنا نحن الفتيات بأننا لن نخاف بعد اليوم أبدا، هزمنا الخوف من واقعنا ومن قلوبنا واستبدلناه بالمحبة والحنان والتضامن، المستقبل لنا والحياة تبدو بهيجة مملوءة بالزينة والأضواء والألوان مثل شارع الرشيد، شارع الرشيد سيكون المثال الذي ستسير عليه حياتنا، شارع الرشيد الآن منور ضاحك مملوء فرحاً منتج جاد محب متفانٍ.

الكل يقدمون لنا الحماية والرعاية، سنعيش أجواء الصفاء والنقاء والطيبة دوما. طوال فترة سيرنا لم تنقطع الأغاني الوطنية أو الشعبية، كلٌ يغني بلهجته أو بلغته، فلم يكن من السهولة نزع الفرح عن النفوس المبتهجة. في الأفق الشمس تشق طريقها بهدوء وسكينة لولادة يوم جديد وعهد جديد، هذه الاحتفالية خلقت نسيجا مختلفا من الناس لحمته التضامن وسديته المحبة.

وفي غمرة الفرحة تلك اقترب منى دحام وزميل آخر من الحزب وقالا:

- لنا حديث معك، لقد لاحظنا في الأيام الأخيرة أنك وأستاذ عبد الرزاق قد اقتربتما من بعضكما البعض وهذه العلاقة التي تربطكما ستكون علاقة تشوه سمعة الحزب، لذا نطلب منك قطعها فورا، كما ورفعنا تقريرا للحزب حول الأستاذ عبد الرزاق وطلبنا منهم إبلاغه بقطع علاقته بك.

تجاهلتهما وأنكرت وجود أي شيء غير معقول لم يفهما ردّي سوى أنه نفي قاطع، يا لغبائهما ما هو المعقول؟ وكيف نفسره؟ أنفسره وفقا لهواهما وتفكيرهما المحدود،ثم ما دخل الحزب في الوشائج التي تربط النفوس والقلوب؟

الزميل الحزبي هائم في حب إحدى الزميلات ونظرات دحام الشرهة تلاحقني إلا أنني أتجاهله وأحاول أن تكون

الزمالة هي المستحوذة، وكذلك العمل الحزبي والسياسي، لم أرد أن أخذ كلامها على محمل الجد لئلا أحس بالقهر والألم في هذا اليوم الذي جسد فينا الانتماء لبلد كنا قد فقد الأمل في إحياه، بل اعتبرتهما مجرد صبيين غبيين يحاولان فرض السيطرة وهما في غفلة عن كل شيء إلا نشوة السيطرة والقوة ورغبات الحب الصبيانية، حب كلاهما مستحيل أن يثمر، لم أكنَّ لدحام يوما ما حبا أبدا، فهو مثال للشخص الذي ارفض أن أمنحه قلبي، ولن يكون هناك غير الصداقة والأخوة والعمل السياسي.

في جو مفعم بالحبور والأمل وبانتظار فجر جديد مشرق جاءا ليستجوباني ويحذراني من أمر لا علاقة لهما به، استجوابهما وتهديدهما الواضح بدا لي بالإضافة إلى غبائهما هو ما ستكون عليه طروحاتهما المستقبلية القوة والغصب وفرض الرأي من وجهة نظر واحدة ولا مجال للمناقشة أو للوصول إلى قناعات مشتركة، وشعرت بأنهما قد حاولا قتل الفرحة الكبيرة وربما سيقتلان أفراحاً أخرى مستقبلا.

نظر خلدون حوله محاولا أن يخفي السكاكين والشوكات تحت أي شيء بعيدا عن أعين المتطفلين وقال: أكملا عملكما أما أنا فسأذهب لغرفتي لارتاح قليلا استعداد للافتتاح.

جلسنا حسين وأنا على الأرض الترابية ونحن في حيرة من أمرنا لا نعرف ماذا نقول الخيبة واضحة على محيّانا، حسين يهز رأسه ويقول أكد لي دحام كذب رواية سلام وقال لم نستعمل أي سكاكين، لم نهجم على القوميين أبدا كل ما قالوه محض افتراء، والآن بانت السكاكين التي أخفاها دحام وجماعته، وظهر أن كلام سلام صحيح ماذا سنفعل يا زميلة، سكتُّ ولم أرد إذا أن الأمر كان فوق تصوري أن تبدأ مجموعتنا الطلابية التي تَدّعى أنها من أنصار السلام بالاعتداء على إنسان اعزل بقسوة وبالسكاكين، وبالأخص على سلام لأنه كان طالبا مؤدبا ولا يحاول المجابهة أبدا، وكان يعلن اختلاف وجهات نظره علنا ولكن بأسلوب متزن عقلاني لا باندفاع ونزق وتهور، بالإضافة إلا أنه أكبر سنا نسبيا من مجاميع الطلبة عموما.

إذاً فقد كان اختيار سلام عمدا ومقصودا لأنهم لم يكونوا ليستطيعوا مواجهة المجموعة الشرسة فاختاروا إنسانا هادئا متزنا، ولكن يختلف عنهم فكرا، أين الحرية والديمقراطية التي يزعمونها؟ لم اختيار إنسان هادئ وأعزل؟

أليس هذا جبنا وتطرفا واستفزازا؟ كل هذه الاستفسارات والأسئلة أقلقتني وأزعجتني وسدت أمامي منافذ التفكير المنطقي السليم إذا أنا بين مجموعة تدعي ما تدعي وتطبق العنف والقسوة.

لم أستطع أن أستوعب هذه الفكرة فقد كانت صفة الاعتداء وإلحاق الضرر والأذى كلها ملتصقة بالقوميين والبعثيين فقط، أما نحن فكنت أعتقد أننا القدوة الحسنة في التسامح والقبول ولا نؤمن باستخدام السلاح لفض نزاعاتنا بل بالنقاش والإقناع، اهتزت المفاهيم وانقلبت الموازين وشعرت برغبة عارمة بالبكاء، شعرت أن عالمي بدأ بالانهيار، كل ما يحيطني مجرد ادعاء وكذب.

لاحظ حسين تعاستي وكان يشاركني الهم والألم وقال لي:

- قومي يا زمليتي (الارا) _وهذه الكنية التي نطلقها كلانا فقط على الحزب _(الارا بدأ يخربط والله يستر) سأوصلك إلى باص المصلحة، لا أريد أن أتركك وحدك فقد يعتدي أحد القوميين أو

البغيين عليك، تأكدنا الآن أن دحام وجماعته قد اعتدوا فعلا عليهم بالسكاكين، والقوميون لا يفرقون بين فتاة ورجل فهم فعلا قساة القلوب وقد يثأروا منك ولن أتركك وحدك.

وقفت أنفض ذرات التراب عن ملابسي وأحاول أن أخفي حنقي وخيبتي، سرنا خطوات متجهين صوب البوابة الرئيسية، قلت لحسين:

- سأذهب إلى القسم الداخلي لاستعد للافتتاح قال سأسير معك ولن أتركك وحدك.

حسين أخي الذي لم تلده أمي ولم يخلفه أبي، الأخ الذي اخترته أنا ليكون بديلا عن الأخوة الذين افتقد حضورهم واستجابتهم وتفهمهم.

بيروت (الستينيات)

بعد الحديث والسير على الروشة، سرت باتجاه المنارة، قصدت أن أزور دلال فهي ما زالت تسكن في السان بول حيث ساعدتها في الحصول على غرفة مريحة لها ولزوجها وابنها، ولكن لا أدري كيف قادتني قدماي إلى السرفيس الذي ينادي للأشرفية وركبت السيارة وصوت فيروز يصدح ويعلو وينخفض استجابة لمطبات الطريق (ما في حدا لا

تندهي يا عين ما في حدا... عتمة وطريق ..... بابن مـــشرع والعشب غطى.....).

مرت السيارة بالبرج وكل شيء، طبيعي في هذا اليوم الخريفي الهادىء الجميل إلا بعضاً من الناس متجمعين يقرؤون نشرة الأخبار الضوئية المعلقة فوق أحـــدى البنايـــات ويبـــدو الوجوم على محياهم، حاولت قراءة ما مكتوب علـــى لوحـــة الأخبار لم استطع قال لي السائق "لقد اغتالوا الرئيس الأمريكي جون كندي".

وصلت الدير وبهدوء انسللت إلى دار العجزة، قابلنني النزيلات بكثير من اللامبالاة وكأنني مقيمة معهن، حضوري لم يعن أي شيء كأنني واحدة منهن أو لا وجود لي أصلا، جلست قرب سعدة التي تثير اهتمامي بتعليقات غريبة أغلبها لم أستطع أن أفرز منها الواقع أو الخيال إلا أنها حكيمة وذات معنى ولم أكن أميز أن كانت ما تقوله من بنات أفكارها أم هـــي مجـــرد حكم شعبية متداولة، أنحنت برأسها نحوي وقالت همسا وبكثير من الجدية:

- بتعرفي انو كميل شمعون خي، سرق ورثي ورماني هون.

وأخذت تضرب يدا بيد وتهز رأسها علامة الانكسار، وتتعالى حسراتها بحرقة ومذلة، غمني كلامهـــا وتوقعـــت أن

يصدر عن هذا الرجل الذي لا نكن له الاحترام، مثل هذا التصرف فهو رأسمالي متشبع بالقيم الأمريكية على أي حال، كميل شمعون يملك الملايين ويتنعم بحياة مرفهة حلوة ناعمة لا يملك أي حس إنساني وهو السياسي الغني الذي تمتع بأرفع المناصب، ترك أخته المسكينة التي تبدو لي بتمام العافية تعيش بين المخبولات والمتخلفات والعاجزات، في حين أنه كان عليه أن يوفر لها الرعاية المنزلية شعرت بالغضب والاختناق من قسوة الأخوة والأقارب، مرت الراهبة ابتسمت لي وقالت:

- شو مبسوطه مع هاي الخوتة.

قلت لها:

- زعلني اللي عملوا فيا خيا كميل شمعون.

قالت الراهبة:

- هلق كميل شمعون خيا، الجمعة اللي فاتت كان صائب سلام، والجمعة اللي قبل كان بشارة الخوري.

في الباحة الواسعة وشجرة الصنوبر في وسطها تقف وحيدة ملتصقة بالأرض ومتطلعة نحو السماء، جلست مجموعة من النزيلات قريبات من بعضهن البعض وكأنهن ملتصقات الواحدة بالأخرى، وقد شكلن حلقة دائرية ورؤوسهن منخفضة متجهة وشاخصة نحو الأرض الحجرية وكأنهن يبحثن عن شيء ما سقط منهن، كن ساكنات صامتات في جلستهن تلك إلا

من هزة خفيفة في رؤوسهن، هزة نحو الأعلى والأسفل وكأنهن يتشاورن بصمت أو يؤيدن قولاً ما، أو يجبن بالإيجاب على سؤال ما، واستمرت هزات الرؤوس الرتيبة المنتظمة فترة وهن على جلستهن تلك، أجسامهن ساكنة ووجوههن واجمة لا تعبر عن أي شيء وفجاءة ارتفع صوتهن بالغناء.

دخل عيونك حاكينا

لولا عيونك ما جينا

وصلتينا للراهبات واقطعت الحبل فينا

ويلي ويلي

صمت وترحمت على أندري برتون.

لم أشأ أن اترك هذه المتعة المأساوية، بقيت في الدار ولم أع الساعات التي مرت. جاءت الراهبة تستدعيني إلى القسم الداخلي، إذ أنَّ نوار تنتظرني، احتضنت نوار بشوق وكأني لم أرها منذ دهور.

قالت لي :

- اتركيني، حدثيني كيف كان اللقاء بعبد الرزاق؟

- لقاء الغرباء.

- الم تحني إليه؟

- شعرت بشئ من الحنان، كان فعل انعكاسي عندما عرفت مـــن حقق معه في سجنه، وتلاشى الحنـــان ســـريعا وذاب في أمـــواج الروشة.

امل بورتر أنكلترا 2005

(* كادى الاسم الذي يسمعه بنجي يتردد هو اسم يطلق علـــى الـــصبي المساعد للاعبين الجولف وبنفس الوقت اسم التدليل لأخته كانديس)

* آبيه أو آبي كلمة تركيه تطلق احتراما على الأخ الأكبر أو من يعتبـــر كذلك.

نوار، رواية الذات والمواجهة، رواية عوالم يشكلها التضاد واختلاط الرؤى، الرغبة في خلق عوالم قادرة على احترام الذات وتشكيلها كما تبتغي، لا كما يبتغي الصدى أو الاوطان المصادرة. منذ رحيل حمورابي، حتى وداع برتقال يافا، ستبقى نوار وطناً مسافراً ومغترباً بين ذرف المطر الذي يهبط على غيم..غيم يتقن اندغامه في مفردة الوطن ليخبرنا عن شهداء عادوا ليسردوا لنا حكاية نوار في موسكو، وبغداد والسماوة ، والموصل والبصرة وما أختبأ من مفردات المراكب الضائعة في نية النسيان، إنه الوصل بين بحر حيفا وساحة الأندلس في بغداد، وتبقى نوار لجة السؤال في نزل الوطن، إنها المفردة الضائعة في عتمة اصابعنا.

سليم النجار

فضاءات
للنشر والتوزيع

فضاءات للنشر والتوزيع والطباعة
عمان - الأردن - تلفاكس:٤٦٥٠٨٨٥ ٠٠٩٦٢
dar_fadaat@yahoo.com

9 789957 300623

SERIOUS®
Design